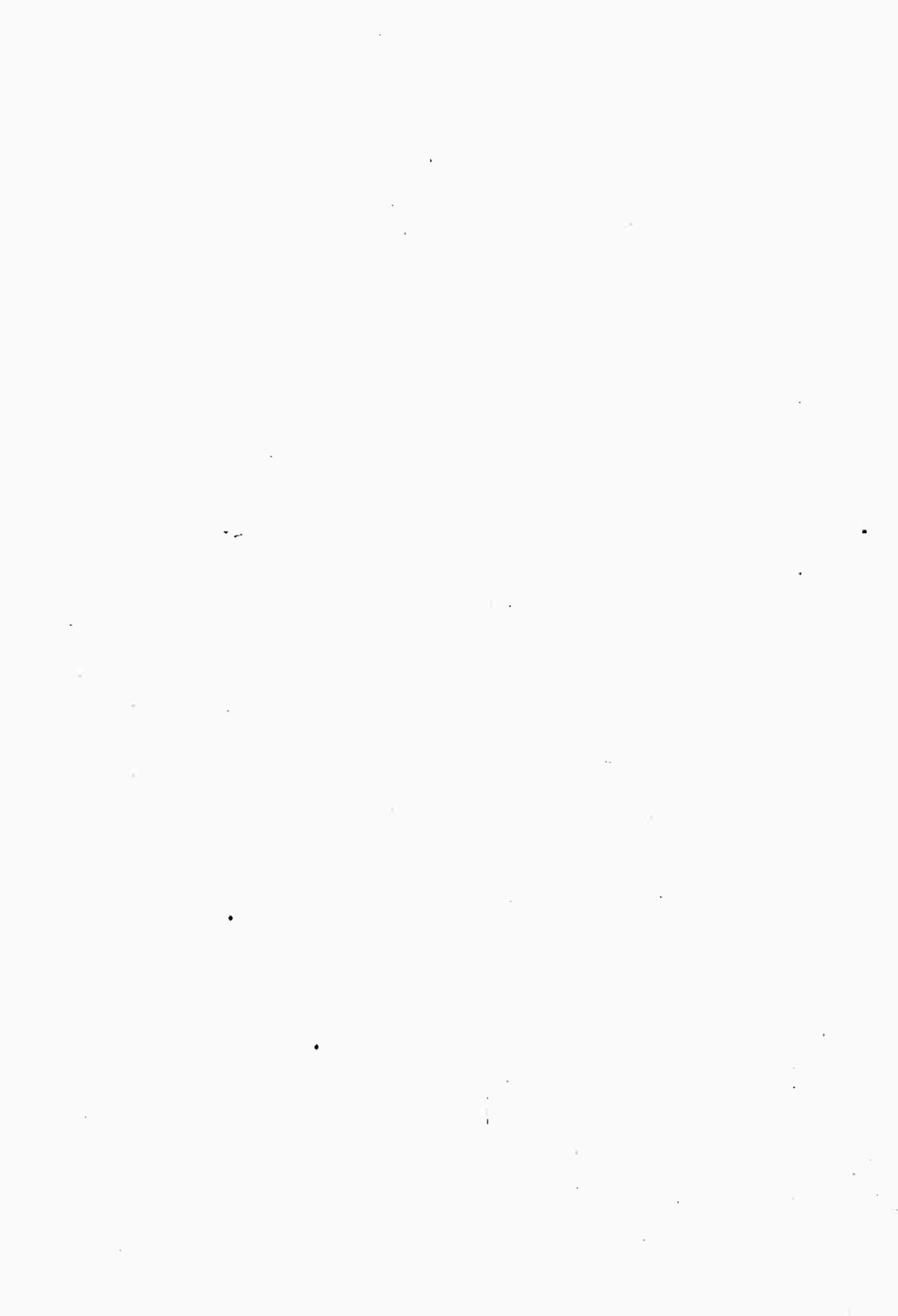


## الفصل الثاني

### الشعر

الشعر في الجاهلية - الخصائص العامة للشعر الأندلسي



ظهرت خلال الفترة التي انقضت بين صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٢٨ وإعداد هذه الطبعة الثانية، دراسات قيمة مشرقة عن الشعر الأندلسي. فقد نشر غرسية غومس - حين كان أستاذًا بجامعة غرناطة - كتابه المسمى «قصائد عربية أندلسية Poemas Arábigo-Andaluces»<sup>(\*)</sup> فأعطانا صورة تشوق النفس عن نواحي الجمال الأدبي التي يضمها هذا الشعر. ثم أخرج للناس عام ١٩٤٠ كُتَيْبَه المسمى «قصائد الأندلس ciadaluQasidas de An» ترجم فيه إلى شعر إسباني رصين أطرافاً من أشعار ابن زيدون وابن عمار والمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية. ثم نشر أبحاثاً متفرقة عن نواح مختلفة من الأدب الأندلسي من بينها ترجمته البديعة «لرسالة» الشقندي في فضل الأندلس بعنوان:

#### Elogio del Espanol por el Secundi

وفي عام ١٩٤٠ أخرج الطبعة الثانية من كتابه «قصائد عربية أندلسية» منقحة معدلة. وبعد ذلك بعامين، أي في عام ١٩٤٢، نشر «كتاب رايات المبرزين وشارات المميزين» لابن سعيد المغربي مع ترجمة إسبانية كاملة وتعليقات إضافية بعنوان: El Libro de las Banderas de los Campeones

وهذا الكتاب مجموع من أشعار أهل الأندلس، استعمله غرسية غومس كأساس لكتابه «القصائد»، ثم نشر نصه كاملاً بعد ذلك، وعندما انتخب عضواً في «المجمع الملكي الإسباني للتاريخ» في سنة ١٩٤٢، ألقى في حفل استقباله بحثاً ضافياً عن ابن زُمَرَك، آخر شاعر فحل أطلعه الأندلس.

ومن الكتب الجليلة التي ظهرت في هذا الميدان مؤلف هنري بيريس أستاذ جامعة الجزائر المعروف: «الشعر الأندلسي الفصيح في القرن الحادي عشر،

(\*) نقلنا هذا الكتاب إلى العربية ونشرناه بعنوان «الشعر الأندلسي» - القاهرة ١٩٥٢

خصائصه العامة وقيمه التاريخية:

Henri Pèrès: La poesie Andaluse en Arabe Classique au XI Siècle. Ses Aspects Gènèraux et sa Valeur Documentaire (Paris, 1937)

درس فيه حشداً عظيماً من أشعار الأندلسيين وبيوها بحسب موضوعاتها، وجعلها في متناول الباحثين.

وقد رأيت أن أعيد كتابة هذا الباب الثاني من كتابي؛ حتى أضمنه نتائج هذه الدراسات الجديدة، فحذفت معظم ما كنت أوردته في الطبعة الأولى من النصوص، واستبدلت بها أخرى أوردتها بترجمة غرسية غومس. وإنني لأنتهز هذه الفرصة لأعرب لصديقي وزميلي العزيز عن أصدق شكري على ما تفضل به من الإذن لي في الاقتباس من كتبه، وإن القراء ليشاركوني في إزاء هذا الشعر.

#### ٢- الشعر في الجاهلية

اتخذ الشعراء في الأندلس الإسلامي قصائد العرب الجاهليين نماذج ينظمون على منوالها، كما حدث في غير الأندلس من بلاد الإسلام. وقد كانت محاكاة هذا الشعر الجاهلي ميسورة، أما الإتيان بأحسن منه في بابها فقد كان عسيراً.

وكانت قصائد الجاهليين تُتناقل أول الأمر عن طريق الرواية الشفوية، وكان أول من دونها حماد الراوية في القرن الهجري الثاني، إذ دون سبعة من غرر الشعر الجاهلي سميت «المعلقات»، وأصحابها هم: امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والنايفة الذبياني، وأعشى قيس، ولبيد بن أبي ربيعة، وعمرو بن كلثوم، وطرفة بن العبد. ويُجمع نقاد الأدب جميعاً على هذه المعلقات السبع، ويجعل بعضهم معلقتي الحارث بن حلزة وعنترة مكان معلقتي النايفة والأعشى.

وقد وضع بعض كتاب العصور المتأخرة حكاية جعلوها أصلاً للفظ «معلقة» -

ومن هؤلاء السيوطي (١٤٤٥/٨٤٩ - ١٥٠٥/٩١١) - ذهبوا فيها إلى أن معنى اللفظ: «القصائد المعلقة»، وقالوا: إن تنافس الشعراء في إنشاد قصائدهم في سوق عكاظ هو الأصل في ظهور هذه المعلقات، فكان الناس إذا أقرؤا فضل قصيدة علقوها في عكاظ أو في الكعبة.

وليس لدينا عن منافسات الشعراء هذه إلا فكرة غير واضحة، وذهبوا كذلك إلى أن هذه القصائد إنما ظهرت في مكة (لا في عكاظ). وزعموا أنه كان على الشعراء - قبل الإسلام - أن يعرضوا ثمار قرائحهم على رجال قريش ليقتضوا قضاءهم فيها، فكان أولئك القضاة إذا أعجبتهم قصيدة أذنوا لصاحبها في أن يعلقها في الكعبة تشريفاً له، كما كان الإغريق يتوجون رأس الشاعر السباق بإكليل من الغار<sup>(١)</sup>، وتضيف هذه الأسطورة أن لبيداً - حينما اعتنق الإسلام - نزع معلقته من الكعبة ومزقها إرباً.

أما أبو زيد محمد بن علي الكرخي النحوي فقد اختار طائفة من عيون القصائد وجعلها سبع طبقات، أولها المعلقات، وسمي رابعتها «المذهبات». ثم اختلطت هاتان الطبقتان إحداهما بالأخرى، ومن هنا فقد قرر بصورة قاطعة أن «هذه المعلقات كانت مدونة بحروف من ذهب على قطعة من فاخر النسيج علق على أستار الكعبة».

وقال محمد بن أبي الخطاب القرشي في كتابه المسمى بـ: «جمهرة أشعار العرب» في سياق كلامه عن أصحاب المعلقات: «والقول عندنا ما قال أبو عبيدة: امرئ القيس ثم زهير والنيابة والأعشى ولبيد وعمرو وطرفة. وقال المفضل: هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب «السموط»، فمن قال: إن السبع لغيرهم

فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة<sup>(\*)</sup>، فأسقط المفضل من أصحاب المعلقات عنتره والحارث بن حلزة وأثبت الأعشى والنايفة.

وكانت المعلقات تسمى المذهبات، وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على الكعبة، فلذلك يقال: مذهبة فلان، إذا كانت أجود شعره؛ ذكر ذلك غير واحد من العلماء. وقيل بل «كان الملك إذا استجيدت قصيدة يقول: «علقوا لنا هذه»، لتكون في خزائنه»<sup>(\*)</sup>.

بيد أن عدم ورود هذه الأخبار عند أوائل المؤرخين والشرح (كالأزرقي صاحب «تاريخ مكة» وابن هشام صاحب «سيرة النبي»، وقد سجل لنا فيها كل ما كان في الكعبة تسجيلاً دقيقاً)، وورودها أول مرة في إشارة لأحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس أبي جعفر من أهل مصر، المتوفى في منتصف القرن الرابع الهجري<sup>(\*)</sup>، يذهب فيها إلى أن تلك الأخبار حكايات موضوعة لا أساس لها من الصحة، ثم ظهورها بعد ذلك في عصور متأخرة كعصري ابن خلدون (٧٢٢/١٣٢٢ - ٨٠٩/١٤٠٦) والسيوطي (٨٤٩/١٤٤٥ - ٩١١/١٥٠٥) - كل أولئك حجج دامغة تحدونا إلى رفضها.

هذا وقد أثبت بوكوك OckPoc ورايشكه Reiske، ودي ساسي Sylvester de ySac بطلانها ببرهان ظاهر الوجاهة؛ هو ندرة استعمال الكتابة بين العرب؛ حتى

(\*) أبو زيد محمد بن الخطاب القرشي: كتاب «جمهرة أشعار العرب» ص ٢٤ - ٢٥؛ الطبعة الأولى، بولاق ١٣٠٨هـ.

(\*) جلال الدين السيوطي: «كتاب المزهري في علوم اللغة وأنواعها»، القاهرة ١٢٨٣، ج ٢، ص ٢٤٠.

(\*) انظر عنه «معجم الأدباء» لياقوت، ج ٤، ص ٢٢٤-٢٣٠، طبعة فريد رفاعي.

على عهد الرسول. وإذا كان القرآن نفسه لم يدون إلا على قطع من الجلد وسعف النخل والحجارة الملساء، فإنه لمن المستبعد أن تكون القصائد الوثنية قد دونت على نسيج فاخر بحروف من ذهب.

والحقيقة أن لفظ «معلقة» يعني معلقة فعلاً، ولكنه يعني كذلك «عقدًا». وقد استعمله الزمخشري بهذا المعنى عنواناً لمجموع من مختاراته الشعرية؛ ويؤيد ذلك أن حماداً الراوية جمع مختاراً من القصائد وجعله في كتاب سماه «الأسماط» أي «العقود»، مما يجعلنا نقطع بأن المعنى الحقيقي للفظ المعلقة هو العقود.

تصور قصائد الجاهليين حياة عصرهم بخيرها وشرها، وذلك أمر طبيعي. ولقد أخذ الشعراء بنصيب فيما وقع بين قبائلهم من خصومات وحروب لا آخر لها، تدور كلها حول الذود عن شرف القبيلة والانتصاف لها إذا مس اسمها ما يشين، أو قتل من أفرادها أحد.

وقد برز الشاعر عنتر في الحروب التي ثارت بين قبيلتي عبس وذبيان. أما امرؤ القيس الكندي فقد جُوب في آفاق جزيرة العرب كلها طالباً أعداءه بثأر أبيه المقتول، وبلغ به الأمر أن قصد القسطنطينية راجياً الحصول على العون من إمبراطورها، فمات في عودته منها عند أنقرة. وحلف الشنفرى ليقتلن مائة رجل من عبس ثأراً لصهره. وقضى عمرو بن هند ملك الحيرة أن يدفن طرفه وخاله المتلمس حين عقاباً لهما على ما قالاه فيه. وسفك عمرو بن كلثوم دم هذا الملك في سورة غضب؛ لأن أم ابن هند أهانت أمه.

وفي مقابلة هذه الخصلة الرعناء، نجد العربي يمتاز بكرم ذهب مضرب الأمثال عن أهل الغرب. وقد جبل العربي على ذلك الندى بسبب ما يسود الصحراء من مخاوف. ومن مآثر ذلك الكرم العربي التي نضربها مثلاً ما ينسب إلى «مزار

المَقْعَسِيّ، الذي يروي له أبو تمام في «الحماسة» أبياتاً يقول فيها:

أليثُ لا أخفى إذا الليلُ جَثني      سنا النارِ عن سارٍ ولا متنورٍ  
هيا موقدي ناري ارفعاها لملها      تضئني لسارٍ آخرَ الليلِ مُقْتِرٍ  
وماذا علينا أن يواجبه نارتنا      كريمُ المحيا شاحبُ المُحَسَّرِ  
إذا قال: بمن أنتم؟ ليعرفَ أهلها      رَفَمْتُ له باسمي ولم أنكر  
فبتنا بخير من كرامةٍ ضيفنا .      وبتنا نهيتي طعمه غيرَ ميسرٍ<sup>(٣)</sup>

ومنها ما يروى عن حاتم طيئ، الذي طلق زوجته؛ لأنها كانت دائمة الخوف من أن يجر كرمه الخراب عليهما، ويقول ابن قتيبة في كتاب «الشعر والشعراء» أنه «حدث - بعد وفاة حاتم - أن رجلاً يعرف بأبي خيبري مر بقبر حاتم، فنزل عنده وبات يناديه: يا أبا عدي، أقر أضيافك! فلما كان في السحر وثب أبو خيبري يصيح: وا راحلتاه! فقال له أصحابه: ما شأنك؟ فقال: خرج حاتم والله بالسيف؛ حتى عقر ناقتي وأنا أنظر إليه؛ فنظروا إلى راحلته فإذا هي لا تتبع، فقالوا: قد والله قراك! فتحروها وظلوا يأكلون من لحمها، ثم أردفوه وانطلقوا. فبينما هم كذلك في مسيرهم طلع عليهم عدي بن حاتم ومعه جمل أسود قد قرنه ببيعه فقال: إن حاتمًا جائني في المنام فذكر لي شتمك إياه وأنه قراك وأصحابك راحلتك، وقد قال في ذلك أبياتاً ورددها عليّ حتى حفظتها:

أبـا خـيـبري وأنـت امـرؤ      حـسـود المشـيرة لوامـها  
فمـاذا أردت إلى رمـة      بدـاويـة صـخب هامـها  
تـسـبـغي أذاهـا وإعـسـارها      وحولـك عـوف وأنعامـها

وأمرني بدفع جمل مكانها إليك، فخذها، فأخذها<sup>(\*)</sup>.

وكان امرؤ القيس قبل توجهه إلى القسطنطينية قد استودع السموأل عارية: خمسة دروع فاخرة من الزرد؛ فلما مات امرؤ القيس أقبل أعداؤه يطلبون إلى السموأل أن يسلمهم الدروع، وهددوه أن يقتلوا ابنه إذا هو لم يسلمها، فأبى أن يفعل رغم إلحاح امرأته، مفضلاً فقد ابنه على أن يخون الأمانة.

وكان التغني بالشجاعة من أحب المواضيع إلى الشعراء والعرب عامة، وإليك مثلاً من شعر عنتر:

وحليل غانية تركتُ مُجَدَّلاً	ثمكُ وفريصته كثر دق الأعلم
سبقت يداي له بما جل طمينة	ورشاش ناهضة كلون العنثم
هلاً سألت الخيل يا ابنة مالك	إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
إذ لا أزال على رحالة سابع	نهز نقاورة الكماء مكلم
طورا يجرد للأطمان وتارة	ياوي إلى حصري القسي عرمرم <sup>(*)</sup>

ويقول غرسية غومس: «إن القصيدة الجاهلية كانت تتألف من ثلاثة أقسام: مدخل غزلي يسمى «النسيب»، ووصف رحلة الشاعر خلال الصحراء ويسمى «الرحيل»، ثم مدح الشخص الذي تقال فيه القصيدة، ويسمى «المدح».

وكان وصف الأسفار المحفوفة بالمخاطر من المواضيع المطروقة الشائعة في

(\*) أخذ المؤلف كلامه عن هذا:

Renè Basset: La Poésie Abrbe Antè-Islamique (Paris, 1880)p.23 sqq.

وانظر: «كتاب الشعر والشعراء» لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة. طبعة دي خويه، لايدن ١٩٠٤، ص ١٢٩-١٣٠.

قصائد الجاهليين؛ وكذلك وصف العواصف والخيول، والجمال، والغزلان، وبعض أنواع السلاح، وما إلى ذلك.

ولم يجعل الله الشعر في طبع محمد ﷺ، وإن كان قد وُهب بلاغة فياضة وأسلوباً أدبياً رائعاً. وفي القرآن آيات تغض من قدر الشعر والشعراء، كقوله (تعالى): ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾؛ ولكن محمداً أجاز قول الشعر واستمع إليه؛ لأنه رأى فيه وسيلة لتقويم اللسان وتعلم البيان. وجعل شعراء المسلمين يدفعون بشعرهم ما عسى أن يوجهه شعراء خصوم الإسلام إليه من النقد والهجاء.

ويقول ابن قتيبة - موجزاً - إنه بعد أن جاء الإسلام تغير الروح والعادات والحضارة والدين، واختلفت عما كان عليه الحال في الجاهلية؛ ومع هذا فقد احتفظ الشعر بنفس قواعده، وظل خاضعاً لقواعد لا يمكنه الفكك منها ... فكان على الشاعر الذي ينظم قصيدة - اتباعاً للقواعد القديمة - أن يبدأ بذكر المنازل التي ظعن عنها أهلها، ثم يتحسر، ويرجو أصحابه الوقوف معه، بينما يمضي هو مع ذكريات من رحلوا عن هذه الديار إلى منازل أخرى ومياه أخرى، ثم يدخل بعد ذلك في قسم النسب من قصيدته: فيشكو آلام الهوى. وهكذا يستلقت الاهتمام نحو شخصه، ثم يصف رحلاته المجهدة الفياضة بالمتاعب في ربوع الصحراء، ثم يتحدث عن نحول دابته من طول السرى، ويمتدحها، ويطنب في وصفها. ثم يختتم بمدح الأمير أو الحاكم الذي ينشده قصيدته؛ حتى يفوز منه بما يسمح به جوده<sup>(٤)</sup>.

واستمر ذلك التقليد المطلق على رغم سخريه نفر من نقاد الأدب منه - ومن أولئك خلف الأحمر - مضوا يأخذون على شعراء بغداد والبصرة ودمشق انصرافهم عن ذكر محاسن الجمال بينما لم تغب عن أبصارهم مآذن المدائن التي ولدوا فيها، أو تغنيهم بذكر الآبار وعيون الماء وبين أيديهم الأنهار ومجاري المياه، أو سكوتهم

عن محاسن الرياض الخضراء يزينها الورد والنرجس والأس، لمجرد أن العرب لم يعرفوا هذه الأشياء.

وهذا هو الذي جعل ابن بسام يقول في شأن الأندلسيين: «... وقد مجت الأسماع يا دار مية بالعلياء فالستند»، وملت الطباع «لخولة أطلال بيرقة نهمد»، ومجت قفا نبلو» في يد المتعلمين، ورجعت على ابن ججر بلائمة المتكلمين؛ فأما «أمن أم أوفى» فعلى آثار من ذهب العفا .. أما أن أن يصم صداها، وسأم مداها؟ وكم من نكته أغفلتها الخطباء، ورب متردم غادرته الشعراء، والإحسان غير محصور، وليس الفضل على زمن بمقصور، وعزيز على الفضل أن ينكر، تقدم به الزمان أو تأخر، ولجى الله قولهم: الفضل للمتقدم! فكم دفن من إحسان، وأخمل من فلان. ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين لضاع علم كثير، وذهب أدب عزيز»<sup>(6)</sup>.

ثم إن الشعر - كما يقول ريبيرا - أصبح «وسيلة قوية من وسائل تمثيل الشعوب في كيان الأمة العربية، ومصدراً من مصادر قوتها: استعمله العرب لشد عزائم الجنود في ميادين القتال، وفي بث الحمية في قلوب الجماهير بذكر الوقائع الحربية في أشعار كان القصاص يرددونها في الطرقات والبيادر والشوارع. وكان ذلك يثير إعجاب الجمهور»<sup>(7)</sup>.

### ٣- الشعر العربي بعد الإسلام

على الرغم من التغيير الكامل الذي شمل حياة العرب بعد الإسلام، ظل الشعر العربي خاضعاً لقيود لم تتغير، وفي ذلك يقول غرسية غومس: «ولقد فقد الشعر علة وجوده الأولى عندما انتقل القلب النابض للإسلام من جزيرة العرب إلى دمشق القريبة من الصحراء، وبعد أن غادر الشعر العربي هذه الأخيرة إلى بغداد ليستقر وتهدأ روحه فيها، إذ طفت عليه العناصر الأسوية.

وتأكد ذلك عندما انتقلت الخلافة من أيدي الأمويين - ذؤابة الشرف البدوي القديم، الذين كان حب البداوة يعمر قلوبهم - إلى العباسيين الذين لبسوا ثياب المستبدين من عواهل الشرق القديم. هنالك احتبس في الحلوقة ذلك الصوت الجهير العميق الذي كان يصدر عن قلب الطبيعة النابض، وحُرم الشاعر من اللذة التي كان يجدها في وصف الجمل وشيائه، وتصوير شجيرات الخزامى والبهار والعرار النابتة بين كثبان الرمال، أو في تصوير الوقائع الدامية التي كانت تثور بين البدو بعضهم وبعض، ولم يعد يستطيع الحديث في حرية وانطلاق عما كان يعانیه في صحرائه من مشاق وجوع. ولم يعد الشاعر كذلك لسان القبيلة السياسي، المتحدث بمفاخرها، المهاجم لخصومها، المنادي بطلب ثأرها، وإنما أصبح مداحاً مأجوراً أو هاجياً مثيراً للعداوات والأحقاد. ولم تعد حبيبته تلك البدوية الحرة البارة الجمال، على الرغم مما كان يشوب حسننها من سذاجة ويداوة؛ لأنها حجبت عن الناس والنور خلف جدران الحریم لتعزف على عودها في عزلة عن الحياة، وعاشت في جو مثقل مظلم.

ثم إن الشاعر لم يعد في جو الصحراء الرحب الطلق تحت أشعة الشمس الصاحية، وإنما أصبح يتقل في أزقة المدن بين المكتبات والقصور ومجالس الأنس والأدب واللهو؛ حيث يلتبس إعجاب فتية مترفين أفسدهم نعيم الحضارة، وكان بعضهم ينشد الناس شعره على هيئة شاذة تبعث على العجب، كهذا الشاعر الموصلي الذي حدثنا الشابشتي أنه «دخل على بعض الولاة وقد طين وجهه بطين أحمر ولبس لباداً أحمر وعمامة حمراء وأمسك عكازاً أحمر ولبس في رجليه خفين أحمرين»<sup>(\*)</sup>.

(\*) كتاب الديارات، للشابشتي، ص ٨٦.

وكان لا بد للشعر من أن يتطور في الظروف الجديدة، واثارت الخصومة بين القدامى والمحدثين، وفيما بين أواخر القرن الثامن وأوائل العاشر طرقت شعراء من طبقة بشار بن بُرد وأبي العتاهية وأبي نواس وابن المعتز ونفر كثير غيرهم موضوعات جديدة «ما مرت قط بخاطر جاهلي ولا مخضرم ولا إسلامي»<sup>(\*)</sup>.

وجاء بعدهم جيل جديد كابن بكر بن أحمد الصنوبري وأبي عبد الله بن الحسين بن أحمد بن الحجاج - أبداعوا وأغربوا في اختيار الموضوعات، فتحدثوا في شعرهم عن أزهار الرياض والبساتين وبرك الماء والأسماك والثلج والفراميات العسيرة أو المبتذلة ومجالس الشراب والجواري الفلاميات. وأغرب بعضهم في اختيار الموضوعات حتى قال بعضهم المراثي في القطة<sup>(\*)</sup>. وانصرفت همم الشعراء إلى البحث عن كل غريب مسرف في الغرابة، وطلب كل ما هو متصنع ظاهر الابتكار، كقول أحد الخالديين:

ومدامنة صفراء في قارورة      زرقاء تحملها يد بيضاء  
فالجراح شمس والحياب كواكب      والكف قطب والإناء سماء<sup>(\*)</sup>

وكان الشعراء يتنافسون في أن يحشدوا في أشعارهم أكبر قدر من المعاني. وعلى الرغم من أن هذا التطور مس روح الشعر بصفة خاصة دون ظاهره - فبقيت

(\*) «العمدة» لابن رشيق، ج ٢، ص ١٨٥.

(\*) الإشارة هنا إلى ما فعله ابن علاف المتوفى ٩٢٠/٢١٨، وقد ذكر ذلك الدميري في «حياة الحيوان» ج ٢، ص ٢٢١. انظر إشارة آدم ميتز إلى ذلك وتعليقه عليه، انظر الترجمة العربية لكتابه «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع»، ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو ريده، القاهرة، ١٩٤٠، ج ١، ص ٤٢١-٤٢٢.

(\*) «بتيمة الدهر» الثعالبي، ج ١، ص ٥١٩. والخالديان هما أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد، ابنا هاشم، انظر «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع»، ج ١، ص ٤٢٨.

الأبحر والأوزان القديمة على حالها لم تمس، وبقيت القوالب العامة المعقدة دون تغيير - إلا أن هذا التطور أسفر عن ظهور الخمریات الخالصة ومقطعات النسيب القصيرة أو قصائد التأملات وشعر الحكمة، وأخذت القصيدة تتحول إلى قطعة وصفية.

بيد أن المحدثين لم يوقفوا إلى إدراك النصر الكامل الذي سعوا إليه. إذ إن للقديم سلطاناً عظيماً على نفوس العرب خاصة، ومن ثم كان للتراث الشعري القديم قيمة كبرى في تاريخ الآداب العربية، والفصيحة<sup>(\*)</sup> منها بصورة خاصة، ذلك أنه «ديوان العرب» الذي تتبين به الأصول القديمة وتُعرف الأنساب، بل أوصاف الطرق والمجالات الغابرة، وما كان لها من خصائص جغرافية وما كان ينبت فيها من نبات.

وكان الناس جميعاً يحفظون هذا الشعر القديم، وكان النحويون ينظرون إليه في إجلال عميق بالغ، وينسجون حوله الحكايات يعارضون قصائده وأبياته في مهارة ظاهرة.

وفي أثناء القرن العاشر الميلادي ظهرت حركة قصدت إلى إحياء الشعر القديم وتجديده نستطيع أن نسميها «حركة القديم المحدث» Neoclasica (تزعماً أبو تمام والبحثري والمعري).

أما الذي وصل بهذه الحركة إلى أوجها فهو أعظم شاعر أطلعته العربية بعد الإسلام، وهو أبو الطيب المتنبى (٢٩٣/٩٠٥ - ٣٥٥/٩٦٥). كانت تعمر نفس المتنبى روح متوثبة تفيض حمية، وربما حامت حول صدق إيمانه الشكوك، وكان فخوراً

(\*) المراد بالفصيح هنا الشعر الذي صيغ في اللغة الفصحى، تمييزاً له من الشعر الدارج الذي صيغ في اللهجات الدارجة المستعملة، كالزجل.

بنفسه عظيم الاعتداد بها ، ولهذا كان من العسير عليه أن يقسر نفسه على ما فرضته الظروف عليه من التكسب بالشعر، وتقلت به صروف الأيام من ممدوح لممدوح، إذ لم يُقدَّر له الاستغناء عنهم جملة. ومن هنا كان المتنبى جَوَّابَ آفاق لا يكل، عارفاً بفنون الشعر كلها قديمها وجديدها، ومن ثم أُتيح لشعره أن يكون جُماعاً لمذاهب الشعر العربي جميعاً، وأُتيح له أن يملك نواصيها كلها في توفيق نادر وملكة طيِّعة.

وقد تناول المتنبى ألوان التجديد والإغراب التي أسرف المحدثون فيها واستعملها عن قدرة وتمكن، فسما بها إلى الأوج الذي كان لها فيما سبق. وشعره محمل بكهربائية عبقرية، حافل بالعواطف، والأحاسيس التي يشوب بعضها الإبهام، غنى بما يثير النفس ويحرك العواطف، كل ذلك في قالب جميل مزنق مما جعل شعره سيقاً من سيوف الحق لا أداة من أدوات العبث.

ولم يعرف العرب قطُّ الشعر القصصي أو شعر الملاحم، ولكن المتنبى في تغنيه بوقائع سيف الدولة مع الروم - وهي صليبيات سبقت زمانها بوقت طويل - استطاع أن يحمل شعره رنيناً ووقعاً قريبين من رنين الملاحم وأوقاعها، وإن كنا لا نظفر فيه بتلك القوة الطبيعية الجماعية (الشعبية) التي نجدها في ملاحمنا القديمة.

وسر قوة شعر المتنبى هذه الحكمة العميقة التي ضمنها شعره، وذلك القالب الغنائي الفلسفي الذي صاغ أبياته فيه، وهذا لا يمنعنا من القول بأن صيغة شعره الرائعة قد تضم أفكاراً عادية شائعة.

بيد أن ولع المتنبى بالشعر القديم فاق ولعه بأي شيء آخر، وقد صدر هذا الشعر عن أعماق نفسه العربية. ومن ثم كان قديراً على تصوير النفس العربية وعالمها في أحسن صورة تصورتها العروبة، ومن هنا أيضاً لم تكن «بدوية» المتنبى

رجعة إلى القديم، وإنما كانت صدى للوعي النفسي العربي الخالد.

فلما استقامت قواعد القصيدة القديمة من جديد، وحرص الشعراء على أن يقولوا شعرهم في حدودها، انحصر الشعر العربي بين أسوار عالية أضاعت أفقه ضيقاً شديداً، وإن ضم هذا الأفق أطرافاً كثيرة مما استحدثه المحدثون، ودرج الشعر بعد ذلك بين هذه القيود، وانحدر في طريق اضمحلال طويل، وغداً متشابهاً معاداً متعباً مجهداً.

#### ف؛ - الخصائص العامة للشعر الأندلسي

يقول غرسية غومس: « وقد نبع الشعر الأندلسي من بحر الشعر المشرقي، وتاريخه يصور لنا التطورات التي ألمنا بذكرها، فلقد كان لشعراء الأندلس ولع بدراسة الشعر الجاهلي، ولكنهم كانوا يرون فيه شيئاً أثرياً قديماً، فلم يكن له في نفوسهم أثر فعال، وكذلك «المحدثون» لم يكن لهم عند شعراء الأندلس أثر بعيد، فيما خلا بدوات نلمحها بين الحين والحين، ونلاحظها في الناحية الجمالية التي ظهرت مع الشعر القديم المحدث. وعلة ذلك أنه في الوقت الذي ظهر فيه شعر جديد بهذا الاسم في الأندلس، كان الشعر القديم المحدث في أوجه في المشرق.

ولا بد أن ننبه من أول الأمر إلى أن الشعر الأندلسي عامة - فيما خلا بضع شواذ - فقير جداً من الناحية الذهنية التفكيرية، ومن دلائل ذلك أن الناحية التي تأثروا بها من المتنبي كانت ناحية البراعة لا ناحية التفكير، وعاشوا أعمارهم كلها مكبلين بقيود القوالب الشكلية الجامدة، ومن ثم لم يستطيعوا أن يدخلوا على الشعر من التغيير إلا أشياء تمس المعاني، مثلهم في ذلك مثل أترابهم من المشاركة، فحاولوا أن يعطوا هذه المعاني صوراً جديدة عن طريق تقطيرها في أنابيق بلاغية، وأوغلوا في ذلك؛ حتى استخرجوا منها تلك الزخارف الشعرية

الأريسية<sup>(\*)</sup> التي تشبه أن تكون «قصور حمراء» لفظية.

فإذا كانت القصائد الأندلسية المنمقة المترفة المعقدة المثقلة على هذه الدرجة من البعد عن الترتيب الذهني، بل من الإحساس الإنساني في أحيان كثيرة، فمن الطبيعي أن تقتصر تلك المرونة السائغة التي نجدها في الشعر القديم.

ولم يكن هذا الشعر الأندلسي مترعاً بالأخيلة فحسب، بل كان مثقلاً بها حَمَلَ منها فوق ما يطيق، بل بلغ من حشد المعاني فيه أن استعصى معظمه على الحفظ والبقاء، وكاد يعسر على الفهم الكامل. وكما يحدث لشجرة مثقلة بالثمار إذ تسقط عنها الثمرات واحدة فواحدة، فكذلك وقع للشعر الأندلسي: لم يبقَ لنا منه إلا ما اقتطفه مصنفو كتب المختارات من تشبيهاته ومعانيه.

وإذا نحن استثنينا بضعة دواوين وقصائد مشهورة وصلت إلينا كاملة، فإن ما لدينا من الشعر الأندلسي قد وصل إلينا مقطعاً مبتسراً، بل مطحوناً يتألق هشيمه الدقيق ببريق الماس.

#### فه - موضوعات الشعر الأندلسي

يقول غرسية غومس - في مقاله الذي أشرنا إليه في هذا الباب - إن الشعر الأندلسي طرق فنون الشعر كافة: من الزهد إلى الهجاء، ونظم شعراء الأندلس قصائد الحماسة، والنسيب، والمديح، والرثاء، والوصف بصفة خاصة، وذهب إلى أن هذا الشعر كان - بصفة عامة - فقيراً من الناحيتين الفكرية والعاطفية، تغلب

(\*) أرابيسك Arabesque كلمة إفرنجية نجدها في اللغات الأوربية كلها. ومعناها عربي الروح، ولكنها لا تستعمل إلا في مواضع الفن، ويراد بها الزخرفة الهندسية المتشابكة التي نعرفها في الزخارف الإسلامية، وقد رأيت أن أستعملها في صورتها الأوربية احتفاظاً بمعناها الخاص قياساً على قولنا: «مورسكي»

عليه قلة الصدق.

فأما فيما يتصل بما فيه من نسيب، فإننا نظفر فيه بأبيات تتحدث عن «الحب العذري»، وهو ضرب من الهوى اشتهرت به طائفة من القبائل البدوية ومنها «بنو عذرة»، ووضع فيه ابن داود الظاهري (المتوفى ٢٩٧/٩٠٩) «كتاب الزهرة» الذي يعتبره ماسنيون «أول محاولة لوضع منهج شعري للحب الأفلاطوني»، ونجد نماذج أخرى من هذا النظر إلى الحب فيما كتبه ابن فرج الجياني وابن حزم القرطبي وصفوان بن إدريس المرسي. وهناك -إلى جانب ذلك- قصائد أخرى يعرض الشعراء فيها مشاهد مفصلة من الحب الحسي، يصفون فيها ما يقع بينهم وبين المحبوب وصفاً مطولاً متثداً، وهم يرسلون هذه الأبيات على العادة بعد سهر-عرييد مسرف في الاستمتاع، ويلجأون إليها في أوصاف ليالي الأتس التي يقضونها مع عشاقهم على ضفاف الأنهار، متماسكين وإياهم كما يحيط السوار بالمعصم، ويتحدثون فيها عن مجالس السرور في مواضع اللهو - «كحور مؤمل» في غرناطة - تغنيهم البلابل وتسطع عليهم النجوم. «ولقد كان التباين الظاهر بين الردف الثقيل والخصر النحيل أكبر مواضع جمال الجسد الأنثوي عند شعراء الأندلس...

وكان الوضع الخاص للمرأة في المجتمع الإسلامي سبباً في قلة فهم الناس للجانب النفسي من حياتها وخصائصها. فلم يعد المحبون منهم يستشعرون من جمالها إلا الحسي الملموس، أي الصورة البدنية، فاندفعوا في الإعجاب بها اندفاعاً عنيفاً لا يُرد، ولم يجدوا ما يبررون به هذا الاستمرار في الكلام في هذه الأوصاف المملة إلا بتميقها وإرسالها في أساليب مؤنقة متنوعة مزينة بالزهور مرصعة بالدرر واليواقيت، وأضفوا على الجسد الجميل ثوباً بديعاً نسجوه من كل ما عثروا عليه في الرياض؛ ويضم هذا الشعر كذلك أبياتاً كثيرة تتحدث عن الميل إلى الغلمان وحب المذكر.

وكانت الخمريات أكثر فنون الشعر ذيوغاً بين شعراء الأندلس. وكانت عادة

الشُّرْبُ أن يجتمعوا على الكئوس في البيوت أو الرياض أو على ضفاف الأنهار، كالوادي الكبير وإبْرُهُ. ولم تكن مجالسهم مجرد اجتماعات للشراب، وإنما اجتماعات أدبية شعرية كذلك. وكان المجلس ينقضي بين تقارض الشعر وارتجاله، يتخلل ذلك - بين الحين والحين - شذوٌ جارية مقلّية يصاحبها عزف العود والطنبور والقيثارة، وتتوزع أحاسيس السُّمَّار بين زهر الأحلام وشطحات السكر ومشاعر الهوى.

وكان ولع شعراء الأندلس بالوصف عظيمًا، وهم يبذون لنا في أوصافهم وكأنهم يتأملون ما حولهم في فتور وبطء وإسهاب، كل ذلك في أسلوب رخو بالغ اللبونة. ومن أمثلة ذلك وصف أبي الحسن علي بن حصن لفرخ حمام في بطنه واتقاد يذكرنا بصبر نقاشي المنمنمات:

وما حاجني إلا ابن ورقاء هاتف	على فنن بين الجزيرة والنهر
مفسق طوق لا زوردي كل كل	موشى الطلي أحوى القوادم والظهر
أدار على الشياقوت أجفان لولو	وصاغ من العقيان طوقًا على الثغر
جديد شبي المنقار داج كأنه	شبي قلم من فضة مُدٌّ في حبر
توسد من فرع الأراك أريكة	ومال على طي الجناح مع النحر
ولما رأي دمعي مُراقًا أرابيه	بكائي فاستولى على الفصن النضر
وحث جناحية وصفق طائرًا	وطار بقلبي حيث طار، ولا أدري <sup>(*)</sup>

وقول أبي جعفر بن عثمان المصحفي في سفرجلة:

(\*) ابن سعيد: «الرايات»، ص ١١.

ومصفرة تختال في ثوب نرجس  
 لها ربح محبوب وقسوة قلبه  
 فصفرتها من صفرتي مستعارة  
 فلما استتمت في القضيبي شبابها  
 مددت يدي باللفظ أبغى اقتطافها  
 وكان لها ثوب من الزغب أغبر  
 فلما تعرت في يدي من لباسها  
 ذكرت بها من لا أبوح بذكره  
 وتمبق عن مسك زكي التنفس  
 ولون محب حلة المسقم مكثس  
 وأنفاسها في الطيب أنفاس مؤنس  
 وحاكت لها الأنواء أبرد سندس  
 لأجعلها ربحانتي وسنط مجلسي  
 يرف على جسم من التبر أملس  
 ولم تبق إلا في غلالة نرجس  
 فاذبلها في الكف حيرت نفسي<sup>(\*)</sup>

بيد أن هذه التباطؤ المتراخي في التعبير لم يحل دون شعرائهم وبين أن يبعثوا في تراكيبهم التشبيهية حيوية وسرعة غير عاديتين، فنجدهم ينتقلون بأذهانهم انتقالات سريعة يجمعون فيها بين المتباعدات، فيشبهون شيئاً صغيراً بشيء كبير (الإبرة الدقيقة بالشهاب أو الكشتبان بخوذة من غير ريشة)، أو يفعلون العكس .

فيشبهون شيئاً كبيراً بشيء صغير (كتشبيه مجاديف القارب بأهداب العين، أو أوطاب الساقية بالجفون)... ولم يفادر أولئك الشعراء شيئاً دون أن يشبهوه بشيء، ففي عالم النبات مثلاً لم يقف الشعراء عند دائرة الزهور العليا، بل وضعوا النيلوفر والخرشوف جنباً إلى جنب، ولم يروا بأساً في أن يفتن الباذنجان بالنرجس.

وهكذا كانت كل الأشياء عندهم سواء، يستعملونها في تكوين صور نباتية ذات جمال تذكرنا بالزخارف المتشابكة التي تقش في المرمر أو الرخام أو الجص على السواء؛ كل شيء يصلح أن يكون مادة للفن في أيديهم، ويجمع شعرهم

(\*) ابن الأبار: «الحلة»، ص ١٤٤.

أصداء الصحراء البعيدة - جنباً إلى جنب - مع ما كان يحيط بالشعراء في البيئة الأندلسية الزاهرة، كالسواقي وشجر البرتقال.

ولم يظهر الأندلسيون براعة ذات بال في الشعر السياسي أو الحماسي، ولم يُوفّقوا كثيراً في شعر الحكمة والتهديب، أما شعرهم الديني فتقصه حرارة العاطفة، وهم ينتقلون فيه من الوعظ المبثذل إلى وجد الصوفية أو الثيوصوفية، دون تدرج أو تمهيد.

ومضى الأندلسيون في المدائح على نهج من تقدمهم من الشعراء، فأسرفوا وبالعوا. وخلت أشعارهم في هذا الباب مما يربطها بشخص المقولة فيه، بحيث يُستطاع أن توجه إلى أي إنسان إذا استبدلنا اسمه باسم الممدوح، ونظم الأندلسيون كذلك الأهاجي - العنيفة في الغالب - والمرائي التي تتفاوت في الروح وصدق الإحساس، فنجدها تارة فاترة متكلفة كما نرى في رائية ابن عبدون في رثاء بني الأقطس، وتارة صادقة مؤثرة، كما في نونية أبي البقاء الرندي في بكاء الأندلس وما أصاب بلاده على أيدي التصاري، وأصدق ما لدينا من هذا الضرب ما قاله المعتمد في منفاه بيكي نفسه وما أصابه من زوال ملك ونفي.

وقال الباورن فون شاك: «إن أشعار الأندلسيين، تمتاز - بصفة عامة - بجزالة الألفاظ، وجمال رنينها، وإبداع الأخيلة، ويُعد مداها. وبدلاً من أن يجعلوا الألفاظ مراكب للأفكار، وبدلاً من أن يدعوا القلوب تعبر عن أحاسيسها في فيض طبيعي، نجدهم يقدحون علينا طوفاناً من الألفاظ الرئينة والأخيلية البراقة. وكانما لم يقنعوا بتحريك عواطفنا وطلبوا إعشاء أبصارنا.

وإن أشعارهم لأشبه بالعباب نارية تومض ثم تتلاشى في الظلام، فتبهر العقول لحظة بوميضها، ولكنها لا تترك في النفس أثراً دائماً؛ وذلك بسبب ما تحويه هذه

الأشعار من الألوان المختلفة وصور التشبيهات يتوالى بعضها في إثر بعض دون هوادة.

وقد كان ترامي كثير من الشعراء على التفوق، ورغبتهم في الإتيان بأحسن مما أتى به من سبقهم أو نافسهم من مشاهير الشعراء، سبباً في إسراف الكثير من أشعارهم في ذلك التلكف إسرافاً أدى إلى ضياع قيمتها، إذ أصبحت مجرد إيماض عابر لا يترك في النفس أثراً. أما نحن فنزن شعرهم بميزان يخالف ما اتخذوه، ومن ثم فإن تقديراً لأشعارهم يزداد بقدر ما يقل تلكفهم في الفوص وراء المعاني البعيدة، ويقدر ما يطامنون من طموحهم إلى الإتيان بما لم يسبقوا إليه؛ لأنهم في هذه الحالة يعبرون عن مشاعر صادقة في عبارات غير متكلفة.

«أما المواضيع التي تدور حولها أشعارهم فمن أنواع مختلفة: فهم يتغنون بمباهج الحب الموصول، ويصفون آلام الهوى الخائب، ويصورون بألطف الألوان هناء لقاء رقيق، ويبكون في لهجة مشبوبة آلام الفراق.

وقد حرك مشاعرهم جمال الطبيعة الأندلسية، فمضوا يمتدحون غاياتها وأنهارها وحقولها الخصيبة. ودفعهم ذلك الجمال على تأمل ضياء الشمس البهيج وصفاء الليالي الساجية تثيرها النجوم، وكانوا - إذا أشرقت نفوسهم بنور الإلهام - تداعت إلى أذهانهم من جديد ذكريات المواطن الأولى التي أقبل منها قومهم؛ حيث كان أسلافهم يضررون في الفياض والقفار تحت شمس لافحة، فكانت تصدر عن نفوسهم - بين الحين والحين - نفثات فياضة بعصية جنسية غريبة. كانت تتبعث من أفواههم عنيفة كأنها أعاصير صحراء، وكان لهم - إلى جانب ذلك - شعر ديني زهدي عامر بالتقى العميق والشوق إلى الله، وكانوا تارة يدعون ملوكهم وشعوبهم إلى الجهاد في سبيل الله بعبارات تتوفز حمية، وتارة أخرى يرثون أولئك الذي استشهدوا، ويتحسرون على المدائن التي استقلبها العدو، والمساجد التي حولها النصارى إلى كنائس، ويبكون بالدمع السخين مصير أسراهم التعساء الذين

يعانون آلام الأسر في بلاد النصراري العاتية، ويتشوقون -على غير أمل- على ضفاف «شنييل» الزاهرة.

وكان أولئك الشعراء يتفنون بما كان لأمرائهم من أريحية وجاء، ويطنبون في وصف قصورهم ورواء حدائق تلك القصور. وكانوا يصحبون أولئك الأمراء إلى ميادين القتال، ويصفون طعمان الأسنة، والحراب المخضبة بالدماء، والخيل التي تسبق الريح في عدوها. ويتوارد في أشعارهم كذلك ذكر الكؤوس المترعة بالخمير تدور على السُّمَّار، والنزهات الليلية في زوارق تتهادى على صفحات الماء على ضوء المشاعل، ويصفون في هذه الأشعار تعاقب فصول السنة، فصلاً بعد فصل، وما يطرأ على الطبيعة أثناء ذلك من تطور. ويذكرون نوافير الماء ذات الخير العذب، وغصون الشجر يضافحها النسيم فيميل بعضها على بعض، وقطرات الندى المتألقة على الأزهار، وأشعة القمر المنعكسة على الأمواج. ويصورون - في شعر رقيق - جمال البحر والقبة الزرقاء، والنجوم، والورود، والنجس، وزهر الرمان. وأبدع أولئك الشعراء قصائد صوروا فيها الطرف التي كانت تضي على قصور السادة جواً من الترف المصقول: كتماثيل البرنز، والعنبر، وأواني الزهر الفاخرة، والحمامات، وناقورات الماء المرمرية، والأسود التي تمج الماء من أفواها.

«أما شعرهم في الحكمة والفلسفة فيدور كله حول زوال هذه الحياة الدنيا، وقصر أجلها، وتقلب أحوالها؛ ويتحدث عن القضاء الذي لا مفر لإنسان منه، وقلّة غناء خيرات هذه الدنيا؛ ويتغنى بذكر الفضائل الخلقية والعلوم ويقدرها حق قدرها.

وكان شعراؤهم يستحبون الإمام في أبياتهم بذكر لحظات العيش الهنيئة: فيصفون لقاء الحبيب في الليل، أو ساعة راحية في صحبة شاديات حسناوات. وربما صوروا جارية تقطف ثمرًا من فتن، أو غلامًا جميلًا يسقي الشُّرب، وما أشبه ذلك.

كما أكثروا في التفتي بأوصاف مدائن إسبانيا وكُورِها ، وما فيها من مساجد وقناطر وسقايات وريف نُضير، وغير ذلك من منشآت باهرة. ثم نجد هذا الشعر - آخر الأمر - مرتبطاً في الغالب أشد الارتباط بحياة الشاعر نفسه: فهو صادر عن وحي إحساس اللحظة التي قيل فيها ، وهو إنما كان يرسل ارتجالاً على المألوف من صور الشعر السامي القديم<sup>(٧)</sup>

ونحب الآن أن نضع بين يدي القارئ بعض نماذج الإنتاج الشعري للأندلسيين ، ذاكرين المقدمين من الشعراء مرتبين على حسب عصورهم ، وينبغي أن ننبه إلى أنه من غير الميسور أن نلمّ بذكر الشعراء الأندلسيين جميعاً؛ لأنهم لا يُحصون كثرة. هذا ، والكثير من أولئك الشعراء أدركوا شهرةً طائفةً لمجرد أنهم أسهموا في بعض كبار الحوادث التاريخية ، لا لأنهم شعراء مبرزون. بينما ظل كثيرون آخرون لا يكاد يُعرف من شعرهم شيء ، على الرغم من امتيازهم وتجويدهم.

وإلى أن يُدرس هذا الفن من الأدب الأندلسي دراسة تحليلية شاملة ، لن يكون من الميسور وضع مؤلف شامل عنه؛ ومن ثمّ فإنّ الصفحات التالية ليست إلا مختارات من بين الشائع المعروف من هذا الشعر.

واننا لنرجو القارئ أن يقدر - وهو يقرأ نصوص الأشعار العربية مترجمة إلى الإسبانية - أنها أشعار منقولة تفقدها الترجمة جانباً عظيماً من بهائها وقيمتها ، شأنها في ذلك شأن كل شعر يُنقل من لغة إلى لغة؛ بل ينبغي أن يُذكر أن لهذا الشعر في أصوله العربية قواعد المتعارف عليها بين أهله ، وهي قواعد تجعل القالب اللفظي الذي يصاغ فيه الشعر أول خصائص هذا النوع من القريض ، ومن ثمّ فإننا نجد بعض المنظومات - التي اعتبرها نقاد الأدب العربي ومؤرخوه ممتازة في وقتها - جامدة وخالية من الجمال.

وقد فضلنا - في بعض الأحيان - أن نُورد الترجمة الإسبانية التي قال بها خوان دي فاليرا لكتاب البارون دي شاك «شعر عرب إسبانيا وصقلية وفنهم» Poesia y Arte de los Arabes de Aspana y Sicilia لأن هذه الترجمة - على قلة دقتها - أجمل بكثير من ترجمة الشعر نثرًا؛ وهي - على كل حال - تحمل إلى القارئ الفكرة الأساسية. وقد أتينا - في أحيان أخرى - بالأبيات مترجمة بأقلام دوزي أو بونس بو يجس أو ريبيرا أو غيرهم، أو قمنا بالترجمة بأنفسنا.

يتبين الإنسان في تطور الشعر الأندلسي اتجاهين أساسيين:

(أ): فصيح، و(ب): شعبي دارج<sup>(أ)</sup>.

(أ) الشعر الفصيح

١- عصر الإمارة

عبد الرحمن الداخل - أبو المخشمي - ابن حبيب - الحكم الرضي - زرياب  
وابتكاراته - يحيى الفزال وتمام بن علقمة - الأمير عبد الله - سعيد بن جودي -  
شعراء البلاط.

٦- طلائع شعراء عصر الإمارة

لا نجد بين أيدينا مجموعاً شاملاً لشعر هذا العصر، على الرغم من أن شيئاً  
من ذلك قد وُجد بالفعل، فقد وصل إلينا عنوان مؤلف للأفشتين (المتوفى سنة ٢٠٧/  
٩١٩) - عتيق الأمير المنذر - هو: «طبقات كُتَّاب الأندلس»<sup>(٩)</sup> ومن المؤكد أن هذا  
الكتاب كان يضم شعراً، ووصلت إلينا كذلك أسماء شعراء - مثل قرلمان<sup>(١٠)</sup>  
وغريب بن عبد الله<sup>(١١)</sup> - يطنب الناس في مدح شعرهم وما يمتاز به من طابع قومي،  
وكان الأمراء أنفسهم يقولون الشعر، ومن أمثلة ذلك أن عبد الرحمن الداخل (١٢٨ /  
٧٥٥ - ٧٧٣/٧٨٨) - مؤسس الدولة الأموية الأندلسية - رأى نخلة في حديقة قصر  
(الرّصافة) - ولا بد أنها كانت أول نخلة زرعت في أوربا فهيجت شجنه، فقال:

يا نخل، أنت غريبة مثلي	في الغرب، نائية عن الأصل
فأبكي، وهل تبكي مكبسة	عجماء لم تطيع على خبل؟
لو أنها تبكي، إذن ليكت	ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها ذهلت وأذهلتني	بغضبي بنتي العباس عن أهلي <sup>(١٢)</sup>

وقال عبد الرحمن - ردّاً على قرشي استقل العطاء الذي منحه إياه - أبياتاً  
أشار فيها إلى الصعاب التي لقيها في حياته:

شَتَانٌ مَنْ قَامَ ذَا امْتِعَاضٍ      مُتَضَرِّبِي الشَّفَرَتَيْنِ نَصْلًا  
فَجَابَ قَمْرًا، وَشَقَّ بِحَرًّا      مَسَامِيًا لَجَسَةً وَمَخْلًا  
دَبَّرَ مَلَكًا، وَشَادَ عَزًّا      وَمَنْبِرًا لَلْأَخْطَابِ قَصْلًا  
وَجُنَّدَ الْجَنْدِ حِينَ أودَى      وَمَمَّرَ الْمَصْرَ حِينَ أَخْلَى  
ثُمَّ دَعَا أَهْلَهُ إِلَيْهِ      حَيْثُ انْتَأَوْا، أَنْ هَلَمَّ أَهْلًا  
فَجَاءَ هَذَا طَرِيدٌ جُوع      شَرِيدٌ رُوعٌ يَخَافُ قِتْلًا  
فَنَالَ أَمْنًا، وَنَالَ شَيْعًا      وَنَالَ مَالًا، وَنَالَ أَهْلًا  
أَلَمْ يَكُنْ حَقًّا ذَا عُلَى ذَا      أَعْظَمَ مَنْنٍ مَنَعَمٍ وَمَوْلَى؟<sup>(١٣)</sup>

وعاش - في أيام الأمير عبد الرحمن هذا - أبو المخشي: عاصم بن زيد التميمي الشاعر؛ وكان متضوياً إلى الأمير سليمان - أكبر أبناء عبد الرحمن - فحقد عليه بعض أصحاب هشام - ثاني أولاد عبد الرحمن - «فمدح سليمان بن عبد الرحمن بشعر، وتوهم عليه فيه أنه عرض بهشام أخيه - وكانت بينهما مباحة - فسلم عينيه؛ فقال في العمى شعراً حسناً، ثم قصد به عبد الرحمن بن معاوية، فأشده إياه، فرق له واستعبر، ودعا بألفي دينار فأعطاه، وضاعف له دية العينين. وهو الشعر الذي أوله:

خَضَمْتُ أُمَّ بَسَنَاتِي لِلْعَدَا      أَنْ قَضَى اللَّهُ قَضَاءً فَمَضَى  
وَرَأَتْ أَعْمَى ضَرِيرًا إِثْمًا      مَشِيَهُ فِي الْأَرْضِ لَمَسَ بِالْعَصَا  
فَاسْتَكَانَتْ، ثُمَّ قَالَتْ قَوْلَةً      - وَهِيَ حَرَى - بَلَفَتَ مِنِّي الْمَدَى  
فَقَوَادِي قَرِحَ مِنْ قَوْلِهَا:      «مَا مِنَ الْأَدْوَاءِ دَاءٌ كَالْعَمَى»<sup>(١٤)</sup>

وقال الحكم الرضي<sup>(١٥)</sup>، بعد أن أخذ ثورة أهل ريبض قرطبة:

رأيتُ صدوح الأرض بالسيف راقمًا  
وقدّمًا لأمتُ الشعب مذ كنت يافعًا  
فسائلُ ثموري: هل بها الآن ثغرة  
أبادرها مستضي العزم دارعا  
وشافه على الأرض الفضاء جماجا  
كأحفاف شريان الهيد لوامعا  
تبئك أني لم أكن عن قراعهم  
بوان، وأنني كنت بالسيف قارعا<sup>(٧٦)</sup>  
فباني إذا حادوا جزاعا عن الردى  
فلم أك ذا حديد عن الموت جازعا  
حميتُ ذماري وانتهكت ذمارهم  
ومن لا يحامي ظلُّ خزيان ضارعا  
ولما تساقينا سجال حروينا  
سقيتهم سماء من الموت نافعًا  
وهل زدت أن وهيتهم صاع قرضهم  
فوافوا منايا قُدّرت ومصارعنا  
فهاك بلادي إنني قد تركتها  
مهادًا ولم أتترك عليها منازعا

ف٧- زرياب وابتكاراته

يحتل عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ / ٨٢١ - ٢٣٨ / ٨٥٢) في تاريخ الشعر الأندلسي مكاناً يفوق مكانة أسلافه. ولا يرجع السبب في ذلك بحال إلى المقطعات التي نظمها في جاريته طروب، أو ردأ على أبيات أخرى قالها الشاعر عبد الملك بن الشمر ممتدحاً الأمير وشاكراً له عطاياه<sup>(٧٧)</sup> بل لأنه اجتذب إلى الأندلس زرياباً المغني (والزرياب طائر أسود غرد) الذي أدخل إلى الأندلس الموسيقى والغناء العربيين المشرقيين، وهما فتان نهج عرب المشرق فيهما على أصول قديمة.

كان زرياب تلميذاً لإسحاق الموصلي في بغداد. ثم وقعت بينهما مجافاة؛ لأن زرياباً أبدى من المهارة في حضرة الرشيد ما فاق به أستاذه، «فسقط في يد إسحاق، وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره، فرأى زرياب ألا مناص من الخروج عن العراق، فخرج إلى الغرب ناجياً بنفسه من غضب أستاذه وعرض خدماته على الحكم الرضي، فدعاه إلى القدوم عليه في قرطبة، فسار زرياب؛ حتى بلغ الجزيرة

الخضراء، وهناك بلغه موت الحكم؛ فلما ولي عبد الرحمن بن الحكم أدخله في خدمته.

فرض له عبد الرحمن عطاء قدره مائتا دينار في الشهر، وقرر له ثلاثة آلاف دينار في كل من العيدين، وفرض له كذلك مائتي مد من الشعير، ومثلها من القمح، هذا إلى جانب حدائق وقصور وهبه إياها تقدر قيمتها بأربعين ألف دينار؛ فأقبل زرياب وأصبح موسيقي الأمير.

كان زرياب يدعي «أن الجن كانت تعلمه كل ليلة ما بين نوبة إلى صوت واحد، فكان يهب من نومه سريعاً فيدعو بجاريتيه غزلان وهنيدة، فتأخذان عوديهما ويأخذ هو عوده فيطارحهما ليلته، ثم يكتب الشعر، ثم يعود عَجلاً إلى مضجعه»<sup>(١٨)</sup>. وقد أضاف إلى العود وترًا خامسًا - وكان إلى أيامه أربعة أوتار فحسب تقابل الطبائع البشرية الأربع - عُرف بالوتر الأوسط الدموي الأحمر، ووضعه تحت المثلث وفوق المثني. «وذلك أن «الزير» صبح أصفر اللون وجعل في العود بمنزلة الصفراء من الجسد؛ وصبغ الوتر الثاني بعده أحمر وهو من العود بمكان الدم من الجسد، وهو في اللفظ ضعف الزير، ولذلك سمي «مثنى»؛ وصبغ الوتر الرابع أسود، وجعل من العود مكان السوداء من الجسد وسمي «اليم» وهو أعلى أوتار العود، وهو ضعف المثلث الذي عطل من الصبغ وترك أبيض اللون، وهو من العود بمنزلة البلفم من الجسد وجعل ضعف المثني في اللفظ ولذلك سمي «المثلث»؛ وقام الخامس المزيد مقام النفس من الجسد»<sup>(١٩)</sup>، (كذا الأصل).

«وهو الذي اخترع بالأندلس مضراب العود من قوام النسر - مُعْتَضًا بها من مرهف الخشب - فأبدع في ذلك، للطف قشر الريشة، ونقائه وخفته على الأصابع، وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه»<sup>(٢٠)</sup>.

وكان زرياب شاعراً مُجيداً، ومتضلّعاً في فنون مختلفة «كالنجوم، وقسمة الأقاليم السبعة، وتصنيف بلادها وسكانها» والطبيعة، والسياسة، والتجيم.

وكان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها، وكان سلوكه معتبراً نموذجاً يحتذيه الناس. وكان الناس يتبعونه فيما يتخذ من ثياب وما يعمله من زينة (تصنيف الشعر والملابس والعمود والمآكل وأسلوب ترتيب المائدة، وما إلى ذلك)<sup>(٢١)</sup>.

وقد أدخل زرياب إلى الأندلس صنوع الألحان على طريقة أهل الموصل، فقلبت على طريقة أهل الحجاز التي كان الناس يجرون عليها في الأندلس قبل ذلك<sup>(٢٢)</sup>، وكان يمثلها في بلاط عبد الرحمن ثلاث من المغنيات من: «فضل» و«علم» و«قلم»<sup>(٢٣)</sup>.

وقد اجتهد زرياب في تكوين مدرسته الموسيقية، مستعيناً في ذلك بأبنائه وبناته<sup>(٢٤)</sup> وجاريتيه «متعة»، وانتهى الأمر بأن أصبحت الطريقة الأندلسية التقليدية، على رغم ما كان زرياب يلقى من سخرية يحيى الغزال وتعريض ابن عبد ربه به. وكان من تلاميذ زرياب جارية تسمى «مصاييح»، وأبى مولاها أن يدعها تغني للشاعر أبي عمر بن عبد ربه، فصنع هذا الأبيات وبعث بها إليه:

يا من يضمن بصوت الطائر القريد ما كنت أحسب هذا الضن من أحد  
لو أن أسمع أهل الأرض قاطبة أصفت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

وكان رجال الدين لا ينظرون إلى الموسيقى بعين الرضا، وكان الفقهاء يعتبرون الاشتغال بها أمراً منحطاً لا يليق إلا بالموالي والإماء وذوي السمعة السيئة. ولم يكونوا يقبلون شهادة المغني أو المغنية أو النادبة، ولم يسمحوا بأن تباع كتب الموسيقى والأناشيد علناً، بل كان القضاة المتشددون يأمرون بكسر آلات الموسيقى التي توجد مع المغنيين في الطرقات.

ولكن سوق الفن الموسيقي نفقت في الأندلس -على رغم ذلك كله - وذاع أمره بين الناس ذيوماً واسعاً. وكانت فِرَق الموسيقيين والمغنيين أمراً شائعاً في قصور الخلفاء في عهد بني أمية، وفي حكم المنصور، وعصر المرابطين والموحدين. وكان أولئك الخلفاء والأمراء يشترون الجواري ذوات الصوت الحسن بمبالغ لا تصدق. وكان الموسيقيون يشربون الخمر في طول الأندلس وعرضه، تدلنا على ذلك تلك الثروة الضخمة من الخمريات التي خلفها شعراء الأندلس، والأخبار الكثيرة المتواردة في الخمر ومجالس الشراب في كتب التاريخ والأدب.

ونبع من أهل البلاد موسيقيون وضعوا الحاناً مبتكرة على الطريقة الشرقية، نذكر منهم عبد الوهاب بن الحسين بن جعفر الحاجب - وكان شاعراً حسناً يقيم في بيته ومع أهله حفلات موسيقية - وأبا جعفر الوقشي، الوزير الطليطلي الذي يبدو أنه اخترع عوداً يعزف من تلقاء نفسه بلا ضرب<sup>(٧٥)</sup>.

#### ٨٥ - يحيى الغزال وتعام بن علقمة

وفي نفس العصر الذي عاش فيه زرياب عاش يحيى بن الحكم البكري (١٥٤ / ٧٧٠ - ٢٥٠ / ٨٦٤)، وكان رجلاً من طراز آخر غير طراز زرياب. وكان أصله من جيان، وكانوا يلقبونه بالغزال لجماله. وكان رجلاً حكيماً أرسله عبد الرحمن الأوسط في سفارة إلى بلاط ملك النرمانيين، فاستمال قلوب الناس هناك بظرفه، وأعجبت به الملكة «تود» ونساء حاشيتها خاصة، «فكانت - أي الملكة - لا تصبر عنه يوماً؛ حتى توجه فيه». وقد ألهمته هذه السفارة وغيرها إلى بلاطات أخرى نضرائية أشعاراً لطيفة جميلة.

وقد نفاه عبد الرحمن الأوسط من الأندلس بسبب هجائه المقذع لزرياب، فذهب إلى العراق بعيد وفاة أبي نواس شاعر الخمر ولذات العيش في بلاط هارون الرشيد. «وجلس يوماً مع جماعة منهم فازروا بأهل الأندلس واستهجنوا أشعارهم،

فتركهم؛ حتى وقعوا في ذكر أبي نواس، فقال لهم: من يحفظ منكم قوله:

وَمَا رَأَيْتُ الشَّرْبَ أَكَدَتْ سَمَائِهِمْ      كَأَيْمُنْتُ زَقِي وَأَحْسَبْتُ عَنَائِي  
 فَلَمَّا أَتَيْتُ الحَانَ نَادَيْتُ رَبَّهُ      فَتَابَ خَفِيفَ الرُّوحِ نَحْوَ نَدَائِي  
 فَلَيْلَ هَجُوعِ العَيْنِ إِلَا تَوَلَّى      عَلَى وَجَلٍ مِنِّي وَمِنْ نَظَائِي  
 فَكَلَّمْتُ: أَذَقْتِيهَا! فَلَمَّا أَذَاقَهَا      طَرَحْتُ عَلَى رِيْطِي وَرِدَائِي  
 وَقُلْتُ أَعْرَنِي بِذَلِكَ أَسْكُرُ بِهَا      بَدَلْتُ لَهُ فِيهَا طَلِاقَ نِسَائِي  
 فَوَاللَّهِ مَا بَرَّتْ يَمِينِي وَلَا وَقَّتْ      لَهُ غَيْرَ أَنِّي ضَامِنٌ بُوْهَائِي  
 فَأَيْتُ إِلَى مَنَحِي وَكَمْ أَكُ أَيُّبَا      فَكُلُّ يُفْدِيَنِي وَحُقُّ فِدَائِي  
 فأعجبوا بالشعر وذهبوا في مدحهم له؛ فلما أفرطوا قال لهم: «خفضوا عليكم

فإنه لي!» فأنكروا ذلك، فأنشدهم قصيدته التي أولها:

تداركت في شرب النبيذ خطائي      وفارقت فيه شيمتي وحياتي  
 فلما أتم السورة بالإنشاد خجلوا واقتروا عنه<sup>(٢٧)</sup>.

وقد نظم الغزال أرجوزة في «فتح الأندلس» قال فيها ابن حيان: إنها «كانت جميلة طويلة، عرض فيها أسباب الفتح والوقائع التي جرت بين المسلمين والنصارى، وأطال الحديث عن أمراء هذا الصقع في أسلوب جميل فيه عمق، وكانت شائعة متداولة بين أيدي الناس. وقد ضاعت هذه الأرجوزة»<sup>(٢٧)</sup>.

وقد نظم تمام بن عامر بن علقمة (٨٠١/١٨٤-٨٩٦/٢٨٣) «الأرجوزة المشهورة في ذكر افتتاح الأندلس، وتسمية ولايتها والخلفاء فيها، ووصف حروبها من وقت دخول طارق بن زياد مفتحها إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم. وكان عالماً أديباً، ذكر ذلك ابن حيان»<sup>(٢٨)</sup>، أي أنه فعل ما فعله يحيى الغزال قبله.

وعاشت في عصري الحكم الرضي وعبد الرحمن الأوسط (القرن التاسع الميلادي) حسنة التميمية، وكانت يتيمة استُصفيت أملاك أبيها فتقدمت بشكواها إلى الأمير الحكم بن هشام، فأمر عامل البيرة، برد أملاك أبيها إليها. ومات الحكم بعد ذلك بقليل، فانتهز العامل الفرصة ولم يرد إليها أموالها؛ فما زالت تلح على عبد الرحمن الأوسط؛ حتى أجاب مطلبها.

٩ - الأمير عبد الله - سعيد بن جودي - شعراء البلاط

من المعروف أن النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي في التاريخ السياسي للأندلس يتميز بوهن سلطان الأمراء (محمد والمنذر وعبد الله)، وازدياد نشاط حركة القومية الإسبانية (عمر بن حفصون وبنو قسي) من ناحية، ومن ناحية أخرى بزيادة قوة جماعات العرب المستقرة في النواحي، وتمكن هؤلاء جميعاً من تحويل الأندلس الإسلامي إلى مجموعة كبيرة من النواحي المستقلة بالفعل عن سلطان أمير قرطبة.

وكان الأمير عبد الله يقول في الغزل أبياتاً من طبقة عالية، مثل قوله:

وَنَحِي عَلَى شَادِن كَعْمِيل	فِي مَثَلِهِ يَخْلُوعُ الْعَمْدَانِ
كَانَهُمَا وَجْنَتَاهُ وَرَد	خَالَطَهُ النُّورُ وَالْبَهَارُ
قَضِيْبُ بِيَانٍ إِذَا تَثْنَى	يَدِيرُ طَرَفًا بِهِ أَحْوَارُ
فَصَفُو وِدِي عَلَيْهِ وَقِفْ	مَا أَطْرَدَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ <sup>(٣٠)</sup>

بيد أن أحسن شعراء هذه الفترة هو من غير شك سعيد بن جودي<sup>(٣٠)</sup>، النموذج الصادق للفارس العربي. وكان يمثل العصبية العربية في بعض أدوار صراعها، مع عمر بن حفصون.

وقد حفظ لنا الرواة من شعره أبياتاً قالها في صدد وقعتي شاد والمدينة، وصف

فيها سوء حاله في أسر عمر بن حفصون؛ وأبياتاً أخرى ذات عاطفة مشبوية، قالها بعد أن فكَّ أسره في سنة ٢٧٧/٨٩٠ يتغزل في «جيجان» مغنية عبد الله الذي أصبح بعد ذلك بقليل أميراً على الأندلس.

ولقد سبق سعيد بن جودي ابن حزم في التغني بالهوى العذري الميثوس منه، ومن ذلك تلك الأبيات التي بلغت أعلى درجات الرقة:

سَمِعِي أَبِي أَنْ يَكُونُ الرُّوحُ فِي بَدَنِي      فَأَعْتَاضَ قَلْبِي مِنْهُ لَوْعَةَ الْحَزَنِ  
أَعْطَيْتِ جِيجَانَ رُوحِي عَن تَذْكَرِهَا      هَذَا وَأَمَّ أَرْهَا يَوْمًا وَأَمَّ تُرْنِي  
كَأَنْتِي وَأَسْمُهَا وَالذَّمْعُ مُنْسَكِبَةٌ      مِنْ مَقَلَّتِي رَاهِبٌ صَلَّى إِلَى وَتْنِي<sup>(٣١)</sup>

ونجده في أبيات أخرى طروباً للحياة مستغرقاً في لذات العيش:

لَا شَيْءَ أَمْلَحُ مِنْ سَاقِي عَلَى عُنُقِ      وَمِنْ مَنَاقِلَةٍ كَأَسَا عَلَى طَبَقِي  
وَمِنْ مُوَاصِلَةٍ مِنْ بَعْدِ مَعْتَبَةٍ      وَمِنْ مُرَاسِلَةٍ الْأَحْبَابِ بِالْحَدَقِي  
جَرَيْتُ جَرِي طَمُوحٍ فِي الصُّبَا طَلَقَا      وَمَا خَرَجْتُ لِمَصْرِفِ الدُّهْرِ عَن طَلَقِي  
وَلَا انْتَهَيْتُ لِدَاعِي الْمَوْتِ يَوْمَ وَغَى      كَمَا انْتَهَيْتُ وَحَبْلُ الْحُبِّ فِي عُنُقِي<sup>(٣٢)</sup>

وفي هذا العصر كذلك عاش شعراء لا يرى فيهم غرسية غومس إلا «نظامين لا يمتازون ببراعة»: مثل بكر الكناني، وعباس بن ناصح، وغريب بن عبد الله، وقرامان، وعبيديس بن محمود، وابن سمرة، والقفاط، وأبي المخشي، وابن كلثوم، وحسانة التميمية، وعباس بن فرناس، تتجلى لنا في بعض شعرهم القيمة السياسية للشعر، كالذي نعرفه في الشعر الجاهلي؛ وبعضهم الآخر شعراء بلاط لا يلقى شعرهم من جمهور الناس إقبالاً ولا ذبوعاً بينهم<sup>(٣٣)</sup>.

## ٢- عصر الخلافة

- ابن عبد ربه - منذر بن سعيد البلوطي - ابن هانئ - الزيبيدي -  
 شعراء المنصور - صاعد البغدادي - الرمادي - الوزير أبو المغيرة -  
 ابن أبي زمنين - ابن الهندي - الفرضي - حبيب الصقلي -  
 الشعاعرات - ابن حزم القرطبي

١٠٥

قال غرسية غومس في أسلوبه الشعري الجميل، متحدثاً عن الأدب الأندلسي في هذا العصر:

«لم يصل الشعر الأندلسي إلى أوجهه الكامل وسَمَّته الجمالي إلا في القرن العاشر الميلادي الذي يقترن بقيام الخلافة الأموية الأندلسية عام ٩٢٩/٣١٧ فلقد انتصرت السياسة الأموية الحكيمة على الأزمات كلها: فلم يوفق القديس يولوجيوس إلى استثارة أهل الدين من المستعربين، ولم يلهب حماسهم النسر الأندلسي الذي اعتصم بوكنته في بُبْشْتُر (يشير إلى عمر بن حفصون).

لقد اختلطت بالتربة الأندلسية القديمة العناصر الجديدة التي حملها العرب معهم من فارس وبيزنطة. وقد شجع عملية المزج هذه، وعمل على تقويتها، عامل على أكبر جانب من الأهمية وقف محايداً بعيداً عن التيارات المتضاربة كلها: ذلك هو البيت الأموي. نعم إنه كان عربياً صرفاً - ومن ثم لم يكن إسبانياً - ولكن خصومته العنيفة مع العباسيين المشاركة خففت من عصبية العربية، وجعلته لا يميل إلى العرب وحفزه على التقرب من غيرهم.

ولقد كانت قرطبة بلداً نصف عربي، يتحدث أهله العربية وعجمية أهل الأندلس، ويختلط فيه رنين الأجراس بأذان المؤذن. وكان بعض شعراء الأندلس

يفيئون إلى ظلال البَيع المستعربية الصغيرة؛ ليصيبوا شيئاً من النبيذ، فجددوا بذلك ما عرفه شعراء البدو من شرب النبيذ في ديور الصحراء المتأبدة في القفر. وتجلّى اختلاط الأجناس بعضها ببعض، وتجاور الديانات بعضها لبعض، عن جو سمح جميل إنساني شفاف - نفس الجو الحضاري الذي نعرفه في بغداد أيام ألف ليلة - خالصاً من كل ما يرتبط بالشرق في أذهاننا أبدأً من جلافة يشويها الغموض. لقد قبس طابع الغرب من نسائم سيرامورينا الرقيقة الريفية.

كانت قرطبة تقبل كل شيء وتمثله وتحوله إلى شيء آخر بعد تصفيته: فلقد كانت الرايات وملابس الحداد سوداء في بغداد، فأصبحت بيضاء في الأندلس. وفي تلك الأعصر كانت الممالك النصرانية في الشمال تعيش في جو قروي فقير، أما ملوك إسبانيا الحقيقيون فكانوا سادة قرطبة: عبد الرحمن، والحكم، والمنصور. وبين أيدينا مصاديق ذلك لائحة للعيان:

فهذه أقواس المسجد الجامع ساجية في شبه ظل يروع النفس، وتلك خرائب مدينة الزهراء الرائعة تحولت اليوم إلى ملاعب لمصارعة الثيران، وتضم الكنائس الجامعة والمتاحف قطعاً من بديع النسيج وصناديق العاج تتحدث كلها عن تلك الأمجاد التي لا يخبو ضياؤها، ويتحدث عنها كذلك - بأجلى بيان - الشعر الكثير الذي أثر عن أزمانها.

ولقد عرف الأندلس على أيام الناصر (٩١٢/٣٠٠-٩٦١/٣٥٠) دواوين المتنبّي وغيره من أئمة القريض العربي الفصيح المجدّد، وعلى قصور ذلك الخليفة العظيم وابنه الحكم المستنصر العالم الجماع للكتب (٩٦١/٣٥٠-٩٧٦/٣٦٦) والوزير الخطير العظيم السلطان المنصور بن أبي عامر (توفي عام ١٠٠٢/٣٩٣) وفد سفراء الثقافة المشرقية: من أبي على القالي (دخل الأندلس عام ٩٤١/٣٣٠)، إلى صاعد البغدادي (وفد عام ٩٩٠/٣٨٠).

وعلى هذه القصور الزاهرة وفدت كذلك سفارات نصرانية من الغرب، ومن بيزنطة البعيدة، حاملة معها الطافاً بديعة من الفسيفساء وكتب ديوسقوريد التي وضعت في الأندلس بذور نهضة العلوم الطبيعية التي بلغت أوجها في القرن الثالث عشر الميلادي. كان حشدًا جامعًا من الثقافة الجديدة يعتمل ويختمر في قرطبة.

وفي ظلال جيوش الخلفاء المظفرة وأسننها المشرعة التي لا تغلب كان الكتاب ينشئون، والعلماء يحاضرون إلى جوار عمد المسجد الجامع؛ وانصرف الأغنياء إلى التنافس في جمع الكتب، وغنى القيان، ونظم الشعراء، وعكف العلماء على تصنيف طلائع مجموعات النظم والنثر.

وإذا نحن استثنينا من استأخر من شعراء عصر الإمارة وعاش ردحًا من عصر الخلافة، ونقرأ من الوشاحين، وجدنا في طليعة شعراء هذا العصر ابن عبد ربه (توفي عام ٩٣٩/٣٢٨) صاحب «العقد الفريد» الذي بهر العيون بمدائحه، وابن هانئ الإلبيري (توفي عام ٩٧٢/٣٦٢) الذي لم يلبث أن غادر الأندلس ولحق بملوك المغرب والذي شبه المعري شعره «برحى تطحن قروناً»<sup>(\*)</sup> والزيدي (المتوفى عام ٩٨٩/٣٧٩)، وابن أبي زمنين (توفي ١٠٠٧/٣٩٨)، وأولئك الشعراء الذين ذكرهم ابن حزم في «رسالته»، والمصحفي (توفي عام ٩٨٢/٣٧٢) الذي جرده المنصور من طارقه وتليده وحبسه، وابن فرج الجياني (توفي عام ٩٧٦/٣٦٦) صاحب «كتاب الحدائق» الذي ضاهى به «كتاب الزهرة» لابن داود الأصفهاني، والشاعر الرقيق «الأمير الطليق» (توفي عام ١٠٠٩/٤٠٠) الذي أودع الحبس لقتله أباه، وكان يفار منه، وابن شخيص، والرمادي، (توفي ١٠٢٢/٤١٣)، وابن إدريس الجزيري (توفي ١٠٠٢/٣٩٤) وابن درّاج القسطلي (توفي ١٠٣٠/٤٢١) وكان شاعرًا معقدًا عسير الفهم مثل جُنْجُرَة

(\*) ابن خلكان: «وفيات الأعيان»، رقم ٦٤٠ - ترجمة ابن هانئ.

الشاعر الإسباني، وابن برد (توفي ٤٤٥/١٠٥٢)؛ وغيرهم كثيرين.

ولا بد أن نذكر من بين الكثيرين الذين ظهروا بعد ذلك بقليل في أيام عبد الرحمن الخامس المستظهر بالله - الذي لم يطل حكمه (توفي ٤١٥/١٠٢٤) - فقد أحاطت به هالة من أهل الأدب، وكان هو نفسه أديباً.

وقد نظم الأندلسيون في كل فن وباب: من الزهديات والتاريخيات إلى التوريات التي أكثر الناس منها على عصر المنصور<sup>(٣٤)</sup>.

ولابن فرج الجياني (توفي ٣٦٦/٩٧٦) صاحب «كتاب الحداثق» أبيات جميلة تعتبر نموذجاً للغزل العذري عند شعراء العرب، وقد ترجمها غرسية غومس وجعل عنوانها: «عفة» وهي التالية:

وطائفة الوصال عدوت عنها	وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت في الليل صافرة حيات	دياجي الليل صافرة القناع
فعلكت النهى جمحات شوقي	لأجرى في العفاف على طباعي
ويث بها مبيت المنقب بظما	فيمينعه الكمام من الرضاع
كذلك الروض ما فيه لثني	سوى نظم وشم من متاع
ولست من السوائم مهملات	فاتخذ الرياض من المراعي <sup>(٣٥)</sup>

وأروع ما وصل إليه الشعراء في الوصف وصل إليه أبو جعفر المصحفي (توفي ٣٧٢/٩٨٢) - وزير الحكم المستنصر وهشام المؤيد - في تلك القطعة التي قالها في وصف سفرجلة (ض ٤٥) (٣٦).

١١١- ابن عبد ربه- سعيد بن منذر البلوطي:

ومن المذكورين النابهين من شعراء هذا العصر أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (٢٤٠/٨٦٠-٢٢٨/٩٢٩) مولى بني أمية - وكان شاعر بلاط صرف - وسنتحدث عنه فيما بعد (ف، ٥٤). ولم يكن ذا شاعرية ممتازة سواء في قصائده الطوال التي تحدث فيها عن الحملات السنوية التي قام بها الناصر أو في مقطعاته التي قالها في مدح بني أمية، مثل قوله:

بالمندري بن محمد      شرفت بلاد الأندلس  
فالتير فيها ساكن      والوحش فيها قد أنس<sup>(٣٧)</sup>

وبعض أشعار ابن عبد ربه الغزلية تنبئ عن ذوق وحساسية تفوق ما يبدو في مدائحه. وقد جمع أشعاره في ديوان سماه «المحصات» أتبع فيه كل قطعة غزلية بأخرى في الحكمة أو الزهد؛ حتى يدفع شعر الزهد أوزار الأفكار الدنيوية ومن نسيبه قوله:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله      درأ يعرود من الحياء عتيقاً  
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه      أبصرت وجهك في سناه غريباً<sup>(٣٨)</sup>

ومن أحسن ما قال عبد الملك بن جهور - وزير عبد الرحمن الناصر - تلك الأبيات التي قالها في النرجس:

قد بعثنا إليك بالنرجس الفـ      ض حكي لئون عاشق معمود  
فيه ريح الحبيب عند التلاقي      واصفرار المحب عند الصدود<sup>(٣٩)</sup>

١٢- ابن هانئ - الزبيدي

عاش محمد بن هانئ الإشبيلي (يكنى أبا القاسم ، وأبا محمد ، توفي ٣٦٢ / ٩٧٢) حياة استهتار ، وكان «متهماً بمذهب الفلاسفة. ولما اشتهر عنه ذلك نقم عليه أهل إشبيلية ، وساءت المقالة في حق الملك بسببه وأتهم بمذهبه أيضاً ، فأشار الملك عليه بالغيبة عن البلد مدة ينسى فيها خبره ، فانفصل عنها وعمره يومئذ سبعة وعشرون عاماً...

وخرج إلى المغرب ، ولقى جوهرأ القائد مولى المنصور فامتدحه ، ثم ارتحل إلى جعفر ويحيى ابني علي - وكانا بالمسيلة وهي مدينة الزاب ، وكانا واليها - فبالغا في إكرامه والإحسان إليه. فتمى خبره على المعز أبي تميم معد بن المنصور العبيدي.

ثم توجه المعز إلى الديار المصرية فشيَّعه ابن هانئ ورجع إلى المغرب لأخذ عياله واللحاق به ، ولكنه لقي حتفه عند «برقة» على صورة غامضة في سنة ٩٧٢ ، فمن قائل: إنه لما وصل إلى برقة أضافه شخص من أهلها فأقام عنده أياماً في مجلس الأُنس ، فيقال: إنهم عريدوا عليه فقتلوه. وقيل: خرج من تلك الديار وهو سكران فنام في الطريق وأصبح ميتاً ، ولم يعرف سبب موته ، وقيل إنه وجد في ساقية من سواقي برقة مغنوقاً بتكة سراويله ، وكان ذلك بكرة يوم الأربعاء لسبع ليالٍ بقين من رجب سنة ٣٦٢<sup>(٤٠)</sup>.

ويرجح ابن الخطيب الرواية الأولى. ويرى ابن خلكان أن القصيدة النونية التي قالها ابن هانئ في المعز الفاطمي تُعد من «غزر المدائح ونخب الشعر» ، ويقول ابن خلكان : إنه لولا غلوه في المدح وإفراطه المفضي إلى الكفر لكان ديوانه من أحسن الدواوين. «وليس في المغاربة من هو في طبقته - لا من متقدميهم ولا من متأخريهم - بل هو أشعرهم على الإطلاق ، وهو عندهم كالتنبي عند المشاركة؛

وكانا متعاصرين». أما المعري فقد شبه شعره الرائع الفخم «برحى تطحن قروناً»، كما قال غرسية غومس. وقصيدته في وصف النجوم مشهورة<sup>(٤١)</sup>.

وعلى الضد من استهتار ابن هانئ نجد الزيدي (أبا بكر محمد بن الحسن بن عبد الله ٩١٨/٣٠٦ - ٩٨٩/٣٧٩) رجلاً جاداً. كان مؤدباً للخليفة هشام المويد في صباه، فكان الذي علمه الحساب والعربية ونفعه نفعاً كبيراً، وألف في النحو والتاريخ كتباً لها قدرها (٦٠ و ٦١)، وكان شاعراً يميل في شعره إلى الحكمة والزهد: فيذكر الخوف من الله، وخلود الروح، وثواب الآخرة وعقابها كقوله:

أبا مسلم إن الفتى بجنانه ومقوكه لا بالمراكب واللبس  
وليس ثياب المرء تغني قلامه إذا كان مقصوراً على قصر النفس  
وليس يفيد العلم والحلم والحجى -أبا مسلم- طول القعود على الكرسي<sup>(٤٢)</sup>

وله كذلك نسيب يصور آلام بُعد الحبيب على نحو لطيف رقيق.

### ١٣- شعراء المنصور

كان المنصور يرفع أهل الأدب. ولقد أغرم زماناً بالفلسفة، ثم وجد أن الفقهاء يجدون في هذا ما يثيرون به مشاعر الناس عليه، فأمر بإخراج كتب الفلسفة والفلك من بين غيرها من الكتب من مكتبة القصر وأحرقها بيده أمام نقر من العلماء الموقرين كالأصلي وابن ذكوان والزيدي، ليظهر للناس غيرته على الدين<sup>(٤٣)</sup>. وقد كان لهذا العمل وقع طيب في قلوب الناس، غير أننا لا نشك في أن المنصور فعل ذلك وهو راغم، لأن ميله إلى الأدباء - والشعراء خاصة - كان عظيمًا طول حياته.

وقد قال ريببيرا: «إن المنصور أنشأ بين دواوين الدولة ديواناً خاصاً سمي «ديوان الندماء» مهمته ترتيب الشعراء طبقات وبذل العطاء لهم على أقدارهم في الشعر،

وكان على رأس هذا الديوان واحد من كبار نقدة الأدب<sup>(٤٤)</sup>. ولقد صحب المنصور في بعض غزواته أربعمون شاعراً من كل طبقة؛ ليقولوا الشعر في غزواته.

ومن الطبيعي ألا يخلو رجل من طراز المنصور من أعداء يتفسون عليه طموحه البعيد وتوفيقه في درك غاياته، ومن ثم كثرت الأشعار في هجائه المقذع. وممن اشتد في هجائه الوزير المصحفي الذي أوقع به<sup>(٤٥)</sup>، وإبراهيم بن إدريس الحسني الشاعر.

بيد أن المدائح التي قيلت في هذا القائد العظيم ووزير هشام المؤيد الخطير تروى بكثير على ما قيل فيه من هجاء. وممن أكثر في مدحه ابن دراج القسطلي (من قسطة في الجوف في البرتغال الحالية ٢٤٧/٩٥٨-٤٢٢/١٠٣٠)، وكان كاتباً للحكم المستنصر والمنصور - وله مدائح ومراث طيبة، كتلك التي قالها في صبح البشكنسية - ثم خدم بعد ذلك عبد الرحمن بن أبي عامر المعروف بشيخول، ومحمد بن عبد الجبار المهدي، وسليمان المستعين، وعلي بن حمود الحسن، والمرتضى، وكلهم خلفاء؛ ثم توجه بعد ذلك إلى بلنسية وسرقسطة؛ حيث تكونت حوله حلقة من الشعراء وأهل الأدب.

وأبياته تنم عن ملكة ذهنية فقيرة، وتكلف زائد، وتعقيد يشبه تعقيد جُنْجُرَة الشاعر الإسباني. وإيفال أولئك المحدثين وإسرافهم في تقليد القدماء يفسر لنا إقبال الناس على الموشحات الشعبية، التي يعد ظهورها رد فعل لهذا الشعر القديم المجدد<sup>(٤٦)</sup>.

#### ف ١٤ - صاعد البغدادي

كان صاعد البغدادي المتوفى سنة ٤١٧/١٠٢٦ أحد كبار شعراء بلاط المنصور. أقبل إلى قرطبة حوالي سنة ٣٨٠/٩٩٠ ميلادية واستطاع أن يحظى بعطف المنصور بسبب تضلعه في علوم اللغة والتاريخ، وبسبب ذكائه وطلاوة حديثه وطيب

معاشرته ويديع جوابه وحضوره وبراعته في الارتجال. وقد أكمل ابن بسام هذا الوصف بقوله: إنه كان «ممتعاً محسنًا للسؤال، حاذقاً في استخراج الأموال»<sup>(٤٧)</sup>.

وقد أدخل صاعد إلى الأندلس طريقة جديدة في درس الشعر الجاهلي تتلخص في أن يقرأ الطالب القصيدة، ثم يسأله الأستاذ عن معاني الألفاظ، فيقوم بالشرح معتمداً على قائمة من المعاني يكون قد استخرجها من المعاجم العربية<sup>(٤٨)</sup>.

وكان أبو علي مبدعاً ذا براعة بالغة في هذا الباب، وكان لا يخرج من شيء في هذا السبيل؛ حتى لقد زعم أنه قرأ جميع الكتب المعروفة. وتحكى المراجع عن جراته في ذلك الصدد أن نفرأ من خصوم صاعد «سألوا المنصور في تجليد كراريس بياض تزال جدتها؛ حتى توهم القدم، وترجم عليه «كتاب النكت» تأليف أبي الغوث الصنعاني، فترامي إليه صاعد حين رآه وجعل يقبله وقال: «إي والله لقراته بالبلد الفلاني على الشيخ أبي فلان...»، فأخذه المنصور من يده خوفاً من أن يفتحه وقال: «إن كنت قد قرأته كما تزعم فعلام يحتوي؟» فقال: «وأبيك بعد عهدي به ولا أحفظ الآن منه شيئاً، ولكنه يحتوي على لغة منثورة لا يشوبها شعر ولا خبر» فقال له المنصور: «أبعد الله مثلك، فما رأيت أكذب منك»، وأمر بإخراجه<sup>(٤٩)</sup>.

وتصدى صاعد لتأليف كتاب يفوق «الأمالي» لأبي علي القالي، وزعم للمنصور أنه يملي «على كُتاب دولته كتاباً أرفع منه وأجل لا يورد فيه خبراً مما أورده أبو علي، فأذن له المنصور في ذلك، وجلس بجامع مدينة الزاهرة يملي كتابه المترجم «بالفصوص»، فلما أكمله تتبعه أدباء الوقت فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم ولا خبر ثبت لديهم»، فأمر المنصور بأن يقذف كتاب الفصوص في النهر، فقال بعض الشعراء:

قد غاص في الماء كتاب الفصوص      وهكذا كل قيل يفوص

فأجابه صاعد :

عاد إلى معدنه، إنما توجد في قعر البعار الفصوص<sup>(٥٠)</sup>  
ونظر صاعد إلى وردة بيد المنصور في غير وقتها لم يستتم فتح ورقها فقال مرتجلاً:

أتيتك أبداً عامر ورده      يذكرك المسك أنفاسها  
كمنزاة أبصرها مبصر      ففطت بأكامها رأسها<sup>(٥١)</sup>

وتقدم صاعد إلى المنصور يوماً بأيل في قيده، وكتب معه بأبيات متوسطة الجودة جاء في بعضها:

مولاي، مؤنس غريتي، متخطفي      من ظفر إسامي، مُمَنِّع معقلي  
عبد جُدُّبَتْ بضبعه ورفعت من      مقداره أهدي إليك بأيل  
سميته غرسية وبعثيته      في حبله لِيُستاح فيه تساولي  
لفطن قبلت فذاك أنفوس مئة      أسندى بها ذو مسنحة وتطوُّل  
صحبتك غادية السرور وجللت      أرجاء ريعك بالسحاب المخضلا

فقضى الله في سابق علمه أن غرسية بن شانجه (صاحب نيره) من ملوك الروم - وكان أمنع من النجم - أسر في ذلك اليوم بعينه الذي بعث فيه صاعد بالأيل وسماه غرسية متفائلاً، فزاد حب المنصور لصاعد بسبب هذا التوافق الغريب.

ولم يكن صاعد ليدع فرصة تفلت إلا أظهر للمنصور شكره، ومن ذلك أنه بعث إلى المنصور غلاماً له أسود يُسمى كافوراً، وقد ألبسه قميصاً كالمرقعة حاكه من خرق الأكياس والصُرُر التي كان يقبض فيها صلوات المنصور؛ فلما مثل بين يدي المنصور عجب من فعل صاعد بغلامه وسأله في ذلك فقال: «يا مولانا، هنالك الفائدة. اعلم يا مولاي أنك وهبت لي اليوم ملء جلد كافور مالا، فتهلل وقال:

«لله درك من شاكر مستبطن لغوامض معاني الشكر»، وأمر له بمالٍ واسع وكسوة، وكسا كافوراً أحسن كسوة<sup>(٥٢)</sup>.

#### ١٥ - الرمادي

وأهم من صاعد - من الناحية الأدبية - يوسف بن هارون الرمادي. والرمادي ليس نسبة إلى بلد يسمى رمادة - كما يحسب البعض - وإنما هو الصورة العربية لكنيته بالإسبانية الدارجة وهي: «أبو جنيس»، والجنيس Cenisa في الإسبانية هو الرماد، وترجمة «الرمادي» بالإسبانية على هذا El Ceniciento.

وقد أتهم الرمادي بالاشتراك في مؤامرة اشترك في تدبيرها على المنصور جماعة من أهل الأدب - ربما كان دافعهم إلى ذلك الحسد له - فحكم المنصور عليه بأن يقاطعه الناس ولا يبادل له الكلام منهم أحد. فمضى المسكين يهيم بين الجموع الذين كانت تزخر بهم طرقات قرطبة «وكأنه ميت». ثم عفا عنه المنصور بعد ذلك؛ لأننا نجده بين الشعراء الذين رافقوه في حملته على برشلونة في سنة ٢٧٦ / ٩٨٦ (انظر فقرة ٥٠).

ويحكي ابن حزم عن الرمادي قصة حب رومانتيكي رائعة الجمال، فيقول : إن الشاعر كان مجتازاً عند «باب العطارين» في قرطبة - وهذا الموضع كان مجتمع النساء - فرأى جارية مليحة: «أخذت بمجامع قلبي، وتخلل حبها جميع أعضائي». فتبعها؛ حتى عبرت عن طريق الجامع، وجعل يتبعها وهي ناهضة نحو القنطرة، فجازها إلى الموضع المعروف بالريض، فلما صار بين رياض بني مروان - رحمهم الله - المبنية على قبورهم في مقبرة الريض خلف النهر، نُظِرَتْهُ منفرداً عن الناس لا هم له غيرها، فأنصرفت إليه فقالت له: «ما لك تمشي ورائي؟» فأخبرها بعظيم بليته بها، فقالت له: «دع عنك هذا ولا تطلب فضيحتي، فلا مطمع لك في ألبته ولا إلى ما ترغبه سبيل»، فقال: «إنني أقنع بالنظر»، فقالت: «ذلك مباح لك»، فقال لها: «يا

سيدتي، أحرّة أم مملوكة؟ فقالت: «مملوكة»، فقال لها: «ما اسمك؟»، قالت: «خلوة»، فقال لها: «ولن أنت؟»، فقالت: «علمك والله بما في السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه، فدع المحال»، فقال لها: «يا سيدتي، وأين أراك بعد هذا؟»، فقالت: «حيث رأيتني اليوم، في مثل تلك الساعة من كل جمعة»، ثم قالت له: «إما تنهض أنت وإما أنهض أنا»، فقال لها: «أنهضي في حفظ الله»، فنهضت نحو القنطرة. ولم يمكنه اتباعها؛ لأنها كانت تتلفت نحوه لترى أيسايرها أم لا. فلما تجاوزت باب القنطرة أتى يقفوها، فلم يقع لها على مسألة. قال أبو عمر، وهو يوسف بن هارون: «فوالله لقد لازمتم باب العطارين والريض من ذلك الوقت إلى الآن فما وقعتُ لها على خبر، ولا أدري أسماءً لحستها أم أرض بلعتها... لا إن في قلبي منها لأحرّ من الجمر!» وهي «خلوة» التي يتغزل بها في أشعاره، ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله في سببها في سرقسطة في قصة طويلة<sup>(52)</sup>.

#### ف-١٦ الوزير أبو المغيرة بن حزم

وكانت للمنصور جارية جميلة مغنية تسمى «أنس القلوب»، وكان ذا غرام بها، غير أنها كانت مولعة بالوزير أبي المغيرة بن حزم. فحدث ذات مرة أن كان المنصور في رياضه الزهرة وفي صحبته أبو المغيرة، ففنت الجارية:

قدم الليل عند سير النهار	وبدا البدر مثل نصف سوار
فكان النهار صفحة خد	وكان الظلام خطاً عذار
وكان الكئوس جامد ماء	وكان المدام دائب نار
نظري قد جنني عليّ ذنوباً	كيف مما جنته عيني اعتذاري؟
يا لقومي، تعجبوا من غزال	جائري في محبتي، وهو جاري!
ليت لو كان لي إليه سبيل	هاقضني من حبه أوطاري

قال أبو المغيرة بن حزم: فلما أكملت الغناء أحسست بالمعنى فقلت:

كيف، كيف الوصول للأقمار      بين سمر القنا وببيض الشفار  
لو علمنا بأن حبك حق      لطلبنا الحياة منك بثار  
وإذا ما الكرام هموا بشيء      خاطروا بالنفوس في الأخطار

قال: فعند ذلك يادر المنصور لحسامه، وغلظ في كلامه وقال لها: «قولي واصدقي إلى من تشيرين بهذا الشوق والحنين؟ فقالت الجارية: «إن كان الكذب أنجى فالصدق أحرى وأولى، والله ما كانت إلا نظيرة ولدت في القلب فكرة، فتكلم الحب عن لساني، ويرح الشوق بكتماني، والعضو مضمون لديك عند المقدرة». ثم بكت فكان دمعها در تتأثر من عقد، أو ظل تساقط من ورد؛ وأنشدت:

أذنبت ذنباً عظيماً      فكيف منه اعتذاري؟  
والله قد در هذا      ولم يكن باختياري  
العضو أحسن شيء      يكون عند اقتدار

فلم يلبث المنصور أن عفا عنها وعنه، ووهبه الجارية<sup>(٥٤)</sup>.

وقد نُقش على قبر المنصور في «مدينة سالم» هذا البيتان:

أثارة تبيك عن أخباره      حتى كأنك بالميان تراه  
تالله لا يأتي الزمان بمثله      أبداً، ولا يحمي الثغور سواه<sup>(٥٥)</sup>

وهذان بيتان يناقضان مناقضة ظاهرة تلك العبارة التي نقرؤها في «مدونة برغش Chronicon Burgeuse»، ونصها: «في سنة ١٠٠٢ توفى المنصور، وألحد في جهنم».

١٧ - ابن أبي زمنين - ابن الهندي - حبيب الصقلي

ونذكر ممن ظهر في عصر المنصور كذلك، أو خلال الفترة التي تلتها إلى سقوط الخلافة، أبا عبد الله محمد بن أبي زمنين (٩٣٥/٣٢٤ - ١٠٠٧/٣٩٨ أو ١٠٠٨ م) الذي نبغ في دراسة الفقه وألف «مدونته» المشهورة، وشهرته بتصانفيه في الوعظ والزهد وأخبار الصالحين أكبر.

وقد أجمع الناس على الإعجاب بشعره الذي يغلب عليه طابع الدين وشيء من التشاؤم؛ واليك نموذجاً من هذا الشعر صاغه في قالب أسئلة، وهو طراز شائع معروف:

الموت في كل حين ينشر الكفنا	ونحن في غفلة عما يراد بنا
لا تعلمنن إلى الدنيا ويهجتها	وان توشحت من أوابها الحسننا
أين الأحبة والجيران؟ ما فعلوا؟	أين الذين هم كانوا لنا سكنا؟
سقام الدهر كما س غير صافية	فصيرتهم لأطباق الثرى رهنا <sup>(١٥)</sup>

وظهر في ذلك العصر أيضاً فقيه شاعر آخر هو أحمد بن سعيد الهمداني، ويعرف بابن الهندي (٩٣٢/٣٢٠ - ١٠٠٨/٣٩٩) وكان متمكناً من أساليب تحرير الوثائق، وقد ألف فيها كتاباً عرف «بالديوان» «شحنه بالأخبار والحكم والأمثال والنوادر والشعر والفوائد والحجج، فأتى «الديوان» كبيراً، واخترع في علم الوثائق فنوناً وألفاظاً وفصولاً وعقداً عجيبة»، («صلة» ابن بشكوال، رقم ١٩) وقد طبقت شهرته آفاق الأندلس بهذا الكتاب.

وكان أبو الوليد (ويكنى أيضاً أبا محمد) عبد الله بن محمد بن نصر الأزدي القرطبي المعروف بابن الفرضي (٩٦٢/٣٥١ - ١٠١٣/٤٠٤) المورخ (انظر فقرة ٨٤) يقول شعراً لطيفاً يستلهم فيه عاطفته الدينية الغالبة عليه، كهذه الأبيات:

أمير الخطايا عند بابك واقف  
على وجل مما به أنت عارف  
يخاف ذنوياً لم يجب عنك غيبها  
ويرجوك فيها فهو راج وخائف  
ومن ذا الذي يُرجى سواك ويُنتهى  
وما لك في فصل القضاة مخالف  
هيا سيدي لا تُغزني في صحيفتي  
إذا نُشرت يوم الحساب الصحائف  
وكن مؤنسي في ظلمة القبر عندما  
يصد ذوو القريى ويجفوا المؤلف  
لئن ضاق عني عفوك الواسع الذي  
أرجى لإسراحي في إني لتالف<sup>(٥٧)</sup>

وحتى «الصقالبة» كانوا يقولون الشعر، وهم طائفة لعبت في ميدان السياسة أدواراً خطيرة في فترات معينة، نبغ من بينهم شعراء مثل حبيب الصقلي، وكان من صقالبة هشام المؤيد، وكان أديباً ذكياً حذراً ألف كتاباً في فضائل الصقالبة جمع فيه الكثير من شعرهم؛ وقد ضاع هذا الكتاب<sup>(٥٨)</sup>.

#### ف ١٨ - شعراء المروانيين

كان أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن الناصر (٢٥٢/٩٦٣ - ٤٠٠/١٠٠٩) من أظهر شعراء عصر الخلافة، وكان حفيداً لعبد الرحمن الناصر، ولقب «بالشريف الطليق». «وكان فيما قيل يهوى جارية رباها أبوه معه وذكرها له، ثم إنه استأثر بها، فاشتدت غيرة مروان لذلك وانتضى سيفاً وانتهز فرصة في بعض خلوات أبيه معها فقتله، وعثر على القصة فسجن وهو ابن ست عشرة سنة، ومكث في السجن ست عشرة سنة، وعاش بعد إطلاقه ست عشرة سنة، وهذا نادر الاتفاق، ومات قريباً من سنة ٤٠٠»<sup>(٥٩)</sup>، وعرف في سجنه ابن مسعود، وكان شاعراً كذلك. وقد جمع غرسية غومس «ديوان» شعره، وأجمل ما فيه قافيتته التي تنقسم أربعة أقسام: النسب، والخمرية، والوصف، والفخر. ووصفه العاصفة فيها بديع رائع ومنها:

غمغام هطل شـريوبه      نادم الـروض، فقنى وسقى  
فكان الأرض منه مطبق      وكان التصب جان أطبقا  
خالع البرق على أرجائه      ثوبٌ وثنى منه ما برقاً  
وكان المارض الجُون به      أدهم خلبي عليه بكأ

وبرع «الشريف الطليق» كذلك في مقطعات النسب الرقيق، وكان طليعة شعراء الأندلس في الزهريات التي بلغ شعراء الأندلس فيها إلى شأو بعيد على يد ابن خفاجة<sup>(٦١)</sup>.

وكان سليمان المستعين - الخليفة الأموي الذي وُلِّي الخلافة مرتين (من ربيع الأول سنة ٤٠٠. إلى شوال سنة ٤٠٠، ومن شوال سنة ٤٠٣ إلى المحرم سنة ٤٠٧هـ) وتوفي عام ١٠١٦/٤٠٧ - يقول شعراً حسناً عارض في بعضه أبياتاً لهارون الرشيد في موضع «الآنسات الثلاث»، وقد كان لهذا الموضوع صدى بعيد في الموسيقى الأندلسية (ف ١٧٤)<sup>(٦٢)</sup>.

وكان عبد الرحمن الخامس المستظهر (توفي عام ١٠٠٩/٤٠٠) - الذي لم يمكث على العرش إلا بضعة أسابيع - يرتجل أشعاراً حسنة، وقد ربطته بابن حزم صداقة صميمية<sup>(٦٣)</sup>.

بل كان الشعر في الأندلس يجري على ألسن النساء، فبزغ فيه منهن نفرٌ نذكر منهن عائشة بنت أحمد، التي عشقت أحد أبناء المنصور وتولعت به، ومريم بنت أبي يعقوب الفيصولي، وكانت زاهدة ورعة واسعة العلم والأدب، وحفصة وأم العلاء الحجاريتين، وغيرهن كثيرات<sup>(٦٤)</sup>.

ومن أظهر شعراء هذا العصر وكُتَّابه أبو عامر بن شهيد (٢٨٢ / ٩٩٢ - ٤٢٧ / ١٠٢٥)، وقد أوجز غرسية غومس الكلام عنه بقوله: «إن ابن شهيد الشاعر الناقد

ليمثل في نظرنا رجل الفكر الصرف. لقد كان من بيت عريق فلم يصبح الأدب في يده خدمة بل سيادة، وتترأى لنا في شعره بين الفينة والفينة لمحات ذات وقع حديث، وأما عن جانبه النقدي فقد خُلف لنا «رسالة» صور فيها رحلة الشاعر إلى الجنة، سابقاً بذلك المعرّي ودانتى إلى ذلك الموضوع. وتعرض للأذى من ملوك الطوائف، وألم به بعد ذلك داء عضال عاني مرارته في صبر المتصوف ورضاه، ووري التراب في مقبرة «الخير» في حدائق قرطبة، فرقد رقدة الأبد تحت الزهور»<sup>(٦٤)</sup>.

ومن بديع شعره قطعته البالغة الجمال المسماة «بعد ليلة أنس»، ومنها هذه الأبيات:

ولما تمدد من سكره	ونام ونامت عيون العسس
دنوت إليه على قربه	بنور هيق إذا ما الشمس
أدب إليه ديب الكرى	وأسمو إليه سمو السنفس
أقبل منه بياض الملقى	وارشف منه سواد الأفس
فبت به لسيلتي ناعماً	إلى أن تبسّم ثمر العنفس <sup>(٦٥)</sup>

وبيتاه اللذان يصف فيهما «العاصفة»:

وقد ففرت فاهما دجى كل زهرة	إلى كل ضرع للغمامة حافل
ومرت جيوش المزن رهوا كأنها	عساكر زنج منهبات المناصل <sup>(٦٦)</sup>

ف١٩- أبو محمد علي بن حزم القرطبي، جانبه الشعري

وربما كان أهم شعراء الأندلس الذين عاشوا في فترة انهيار الخلافة ابن حزم القرطبي، المكثّر في كل ناحية من نواحي الفكر والآداب (انظر ف٦٩).

ونجد أكبر مجموعة من شعره في «كتاب طوق الحمامة في الألفاظ والألأف».

وهو دراسة نفسية للحب (انظر فقرة ٦٦) الذي كتبه حوالي سنة ١٠٢٠/٤١١.

وقد اعتبر غرسية غومس حياته «رمزاً على أحوال الأندلس على أيامه. كان شاباً أنيقاً ينتسب إلى بيت رفيع من موالي بني أمية، دخل ميدان السياسة وهو بعد في مطالع الشباب، ثم عاني أوصاب النفي واشترك في المؤامرات والتدبيرات فيما بعد، ثم أصبح آخر الأمر مُفكراً غضب اللسان، وجواب آفاق ينازل العلماء والفقهاء، ويتحدى بجدله العنيف آراء وعقائد متأصلة في الفقه والفلسفة والدين؛ حتى لقد سمى نفسه في أحد كتبه «رجلاً جدلياً» بل جدلياً جوالاً؛ حتى ليصدق عليه قوله:

لم تستقر به دار ولا وطن      ولا تدفأ منه قط مضجعه  
كأنما صيغ من زهو السحاب فما      تزال ریح إلى الأفاق تدفعه<sup>(٦٧)</sup>

ونجد أكبر مجموعة من شعره مضمنة في تضاعيف كتابه المسمى «طوق الحمامة» (ف٤٧) وقد ألفه سنة ١٠٢٠/٤١٠، ومقامه في الأندلس مقام كتاب «الحياة الجديدة Vita Nova» لدانتلي في إيطاليا، وهو طاقة زهر أريجة من الأقاليم ومقطعات الشعر والتحليل النفسي الخلقى للحب.

ويبدو أن ابن حزم قال الشعر وهو بعد صبي، وكان قد درس البلاغة في شبابه على أساتذة عديدين. وكانت له قريحة طيبة تعينه على الارتجال دون تكلف، وبين أيدينا نموذج من ارتجاله وهو قصيدة رثاء قالها في صديق له وافاه الأجل<sup>(٦٨)</sup>.

وكان ابن حزم يأخذ على الكثيرين من معاصريه الصنعة التي كانوا ينظمون بها شعرهم، وقد سخر من الدموع الغزار التي يذرفونها «على ديار الحبيبة أو خيامها التي خلقتها»، ويرى أن الكلام الذي أكثر الشعراء منه في وصف بهجة الوصل لا يطابق الواقع إلا في قليل.

ولم يسرف ابن حزم في استعمال المجازات والتشبيهات وأضرب البلاغة - كما كان غيره يفعل - ولم يقع في المبالغات العاطفية أو قعاقع الألفاظ إلا قليلاً، وشعره لهذا كله طبيعي، واضح، يصف أحوال النفس على فطرتها، وهو يصف ما شهده وأحس به إحساساً عميقاً في أسلوب جزل لطيف، وشعره ينم تارة عن عاطفة حارة مشبوية كقوله:

وددت بأن القلب شبق بمدينة      وأدخلت فيه، ثم أطبق في صدري  
فأصبحت فيه لا تحلين غيره      إلى مقتضى يوم القيامة والحشر  
تعيشين فيه ما حييت، فإن أمت      سكنت شفاف القلب في ظلم القبر<sup>(٧٩)</sup>

وتارة أخرى يحلق عند قمم التجريد الذهني، وهو أمر غير مألوف في الشعر الأندلسي، كقوله:

أمن عالم الأملاك أنت أم أنسي      أين لي، فقد أرى بتميزي العي  
أرى هيئة إنسانية، غير أنه      إذا عمل التفكير فالجرم علوي  
تبارك من سوى مذاهب خلقه      على أنك النور الأنيق الطبيعي  
ولا شك عندي أنك الروح ساقه      إلينا مثال في النفوس الصالي  
عزمتا دليلاً في حدوثك شاهداً      نقيس عليه، غير أنك مرثي  
ولولا وقوع العين في الكون لم نقل      سوى أنك العقل الرفيع الحقيقي

وقد ختم غرسية غومس كلامه عن ابن حزم بقوله: «ولقد كان إسبانياً خالصاً، وهذا قوله يدل عليه:

ويا جوهر الصين: سعفاً فقد      غزيت بياقوتة الأندلس<sup>(٨٠)</sup>

ولما كان شعر ابن حزم يرد في سياق كتابه عن الحب، فإن لهجته

وموضوعاته تطابق المواد المختلفة التي عالجهما في ذلك الكتاب، من بدء الحب وتطوره؛ حتى خمود ناره وتلاشيه، وهو يتحدث عن سلطان الهوى واستبداده وغرائبه وشكوكه وآلامه وضحاياه، ويتحدث عما يعرض للمحبين من الغدر وعدم الثقة والسلو والخداع، ويتغنى بجمال المرأة - المحبوبة خاصة - وبحلاوة العتاب، ويصف سوء العاذل المترقب للمحبين، ويتحدث عما يكون بين العاشقين من خصام وصلح وتواعد على اللقاء، وما يروونه من أحلام، وما يطرأ عليهم من السلو: أي أنه يعرض لكل الحالات العاطفية المتباينة التي يعرفها أهل الهوى<sup>(٧٢)</sup>.

واليك نماذج من شعره في ذلك الكتاب نقلها عن «الطوق» كما نشره بتروف:

طاف الخيال على مستهتر كلف  
لولا ارتقاب مزار الطيف لم ينم  
لا تعجبوا إذ سرى والليل معتكر  
فنوره مرهب في الأرض للظلم<sup>(٧٣)</sup>

يبكي لبيت مات وهو مكرم  
وللحي أولى بالدموع الذوارف  
فيا عجباً من آسف لأمرئ ثوى  
وما هو للمقتول ظلماً بآسف<sup>(٧٤)</sup>

ف ٢٠- خصائص الشعر الأندلسي في عصر الطوائف

قال غرسية غوميس في تحليل الإنتاج الأدبي لهذا العصر وبيان خصائصه: «كانت قرطبة الأموية - متلقي أجناس الشرق والغرب وموضع امتزاج بعضها ببعض - مركز توازن قلق. وعندما انهار صرح خلافتها انتشر عقد بلادها وتفرقت أيدي سبا، وقام على أنقاضها رؤساء طوائف العرب الصغار، وأمراء الجماعات البربرية، وقتيان صقالبة القصور»، وزالت مع ذلك التفرق القوة المواجهة للسياسة الأندلسية العامة، واختفى ما هو أخطر من ذلك وهو المثل الإسباني الأعلى.

وإذا نحن نظرنا إلى التاريخ الأندلسي وما تعاوره من أحداث، لرأينا أنه بينما

عمل بنو أمية على تحويل الأندلس إلى قطر غربي ووقفوا في ذلك، اجتهد ملوك الطوائف في رد قرطبة الغربية إلى المشرق ثانية، فتحوّلت عواصمه إلى بغدادات صغيرة كثيرة، ولنصف إلى ذلك أن الظروف العامة كانت قد تغيرت تغيراً حاسماً حول الأندلس الإسلامي: فقد استيقظت إسبانيا النصرانية ومدت يدها إلى أوربا: كان ذلك في عصر «السيد القمبيطور». ثم إن أهل المغرب - فيما يلي الزقاق - نظموا أمورهم في صحرائهم وأقاموا لأنفسهم دولة. وبين ناري النصراني في الشمال والبربر في الجنوب وقف ملوك الطوائف وقد هن أمرهم وأضعفهم الترف والبذخ، لا يكاد سلطان أحد منهم يتخطى حدود بلده، فكانت دويلاتهم أشبه بجمهوريات إيطالية في ثياب شرقية: وسادت ذلك العصر كله روح البذخ المسرف والإجرام السافر، ومن المطامع والنزوات، ومن الخناجر والسوموم.

ومن هنا كان هذا الزمان عصراً عظيماً للشعر والشعراء، وتنافس ملوك الطوائف في اجتذاب الشعراء إلى نواحيهم، «ولم تزل الشعراء تتهادى بينهم تهادي النواسم بين الرياض، وتفتك في أموالهم فتكة البراض؛ حتى إن أحد شعرائهم بلغ به ما رآه من منافستهم في أمداحه أن حلف ألا يمدح أحداً منهم بقصيدة إلا بمائة دينار»... كما قال الشقندي<sup>(٧٥)</sup>.

«وكان لكل أمير من أمراء الطوائف ميزة اختص بها دون جيرانه: فامتاز المتوكل صاحب بطليوس بالعلم الغزير، وامتاز ابن ذي النون صاحب طليطة بالبذخ البالغ، وفاق ابن رزين صاحب السهلة أنداده في الموسيقى، واختص المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بالعلوم، ويدُّ ابن طاهر صاحب مرسية أقرانه النثر الجميل المسجوع، أما الشعر فكان أمراً مشتركاً بينهم جميعاً يلقي منهم كل رعاية، ولكن عناية بني عباد أصحاب إشبيلية الجميلة به كانت أعظم وأشمل.

وفي أثناء ذلك كله كانت قرطبة النبيلة تحتضر، وكان البربر أصحاب

السلطان في جنوبي الأندلس قد عقدوا الخناصر مع اليهود ووفود العناصر المشرقية على الأندلس، وانصرف نفر من أهل الأدب إلى تأليف مجموعات جيد الكلام من نظم ونثر، كالذي فعله أبو الوليد الحميري (توفي حوالي ٤٤٠/٤٨٠ م). من تأليف كتابه «البديع في وشي الربيع»، ومضى الناس في نظم الموشحات، ولكن أكثر ما انصرفت إليه الملكات هو قرص شعر حديث على طريقة القدماء، ولدينا من ثمار قرائحهم آلاف من الأبيات؛ لقد أصبح أهل الأندلس كلهم شعراء! حتى قال القزويني: إن أي فلاح يحرث بأثوار في شلب يرتجل ما شئت من الأشعار فيما شئت من الموضوعات.

ومضى الشعراء يقطعون الأندلس طولاً وعرضاً، ينتجعون قصور الأمراء، حيث يظفرون بالماوى والصلوات، ويحضرون مجالس أصحاب الأمر، وتدرج أسماؤهم في سجلات الدواوين، وتخلع عليهم وظائف التدريس.

ولقد كان الواحد منهم يرتجل المقطوعة القصيرة فيبلغ بها الوزارة. ولما اشتد عليهم الطلب وتوالى عليهم إلحاح الأمراء رفعوا أسعار أشعارهم، حتى حلف واحد منهم لا يمدح أميراً بأقل من مائة دينار.

وأدرك اليأس نفراً منهم فانصرفوا عن الشعر وعادوا إلى أريافهم وإلى ما كانوا يزاولونه قبل احترافهم الشعر من أعمال.

وكان كبار القوم - من ملوك ووزراء وأصحاب وظائف كبرى وسفراء - لا يتراسلون إلا شعراً، فكانوا يتهادون بطاقات صغيرة تحمل عبارات الدعوات والاعتذارات والأهاجي، أو يرفقونها بهداياهم، أو يسجلون فيها لمحات من حياتهم، كلها منظومة شعراً يشبهون أنفسهم فيه بالنجوم والزهور؛ أصبحت حياتهم كلها شعراً صرفاً! معظم هذا الشعر متكلف زائف، ولكنه يضم بين الحين والحين لمحات تصور أخلد العواطف الإنسانية<sup>(٣٧)</sup>

## ٢. عصر الطوائف

- (أ) قرطبة: الوزير ابن جهور - ابن زيدون وولادة.  
(ب) إشبيلية: المعتضد - المعتمد بن عباد - شعراء بلاط المعتمد بن عباد - ابن حمديس الصقلي - شعر المعتمد في أيام سعده وأيام إدبار حظه - شهرة الملك الشاعر.  
(ج) غرناطة: أبو الفتوح الجرجاني - أبو إسحاق الإلبيري.  
(د) المرية: الوزير ابن عباس - المعتمد بن صمادح وشعراء بلاطه - آل المعتمد.  
(هـ) بلنسية ومرسية: ابن وهبون - ابن لبون الوادي آشي - الوقشي.  
(و) بطليوس: المظفر بن الأقطس - ابن عبدون وشارح شعره ابن بدرون.  
(ز) سرقسطة: ابن باجة.

(أ) قرطبة

٢١- أبو الوليد أحمد بن زيدون

استولى الوزير أبو الحزم بن جهور على أعنة الحكم في قاعدة خلفاء بني أمية بعد زوال ملكهم. وقد أنشد الأبيات التالية في خراب «قصور الأمويين التي تقوضت أبنيتها، وعوضت من أنيسها بالوحش أفنيتها»:

قلت يوماً لدار قوم لقمانوا      أين سكاكك المرزاز علينا؟  
فأجابت: هنا أقاموا قليلاً      ثم ساروا؛ ولست أعلم أيننا<sup>(٧٧)</sup>

أهم شعراء قرطبة في ذلك العصر أبو الوليد أحمد بن زيدون المخزومي (٣٩٤/ ١٠٠٢-١٠٧٠/٤٦٢). تمتع ابن زيدون بمكانة عالية في المجتمع القرطبي بفضل ما أنفق في تعليمه من عناية، وما وهبه الله من ملكة طيبة. وقد تجلت شاعريته وسنه تقارب العشرين، وذلك أنه عندما توفى القاضي الفقيه ابن ذكوان القي ابن زيدون على قبره مرثية بليغة. وفي خلال فترة الاضطراب السياسي الذي سبق سقوط الخلافة، يبدو أن ابن زيدون أخذ جانب أبي الحزم بن جهور.

ثم لم تلبث العلاقات أن اتصلت بين ابن زيدون وولادة، وكانت سليمة بيت ملك إذ أنها بنت الخليفة الأموي محمد بن عبيد الله بن الناصر لدين الله الملقب بلستكفي بالله، فلما مات أبوها نزعته عن الحريم وخرجت إلى مجامع الأدباء والعلماء.

ويذكر ابن بسام أن ولادة «كانت في نساء أهل زمانها واحدة أقرانها حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر. وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفنناؤها ملعباً لحياد النظم والنثر، يعيش أهل الأدب إلى ضوء غريبتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، على سهولة

حجابها، وكثرة متابها. تخلط ذلك بعلو نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب. على أنها -سمح الله لها، وتعتمد زلتها- أطرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، بقلة مبالاتها، ومجاهرتها بلفتاتها. كتبت -زعموا- على أحد عاتقي ثوبها:

أنا والله أصحح لسمعالي وأمشي مشيتي وأتبه تبيها  
وكتبت على الآخر:

وأمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلي من يشتهيها  
هكذا وجدت هذا الخبر، وأبرأ إلى الله من عهدة ناقلية، وإلى الأدب من غلط النقل إن كان وقع فيه<sup>(٧٨)</sup>.

غير أن المقرئ يقول -بعد أن يروي هذه الفقرة- إنها «كانت مع ذلك مشهورة بالصيانة والعفاف»<sup>(٧٩)</sup>، وهذا الكلام يناقض ما نعرفه في بعض ما بقي من شعر ولادة من فحش وقلة توقر.

ثم توثقت العلاقات بينها وبين ابن زيدون، فكتبت إليه ذات مرة مجيبة إياه إلى اللقاء بعد طول إلحاحه:

ترقب إذا جنّ الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكرم للسر  
وي منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر<sup>(٨٠)</sup>  
وقلد ابن زيدون أبا الطيب في أسلوبه، فقال في بعض شعره في ولادة:

ته أحتمل وأستظل أصبر وعجز أهن ووكل أقبل وقيل أسمع ومسر أطع<sup>(٨١)</sup>

بيد أن السر لم يلبث أن ذاع أمره، وأحس الحبيبان أن هواهما في خطر. ثم إن ابن زيدون «ترك غصناً مثمراً بجماله وجنح لفضن لم يثمر»، كما يقول ابن بسام

(مشيراً إلى تعلق ابن زيدون بجارية سوداء لولادة)، فبدأ قلب ولادة يتحول عن ابن زيدون.

ولقيت هي في ذلك الحين أبا عامر بن عبدوس، وكان كلفاً بها يطمع في أن يظفر بوجدها، غير أنه كان رجلاً جاهلاً لا ذكاء فيه ولا علم عنده، وكان إلى جانب ذلك مفتراً بنفسه يحاول جهده أن يغطي جهله بماله العريض، وقد استطاع بفضل هذا المال أن يصبح من وزراء أبي الحزم بن جهور - لمستبد بأمر قرطبة في ذلك الحين - واجتذب ولادة ناحيته، فثارت حفيظة ابن زيدون، وجعل دأبه السخر من أبي عامر بن عبدوس، وكتب إليه خطاباً على لسان ولادة أفرغ فيه تبحره الواسع في الأدب وتمكنه من اللغة، فاشتهر أمر هذه الرسالة في قرطبة وتناقلها الناس من ذلك الحين واعتبروها غرة من أروع غرر الأدب العربي، بدأها بقوله: «أما بعد، أيها المصاب بعقله، المورط بجهله، البين سقطه، الفاحش غلظه، العائر في ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب، فإن العجب أكذب، ومعرفة المرء نفسه أصوب»<sup>(٨٦)</sup>. وإنك راسلتني مستهدياً من صلتني ما صفرت منه أيدي أمثالك، متصدياً من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك، مراسلاً خليلتك مرتادة، مستعملاً عشيقتك قوادة، كاذباً نفسك أنك ستززل عنها إلي، وتخلف بعدها على.

### ولست بأول ذي همة دعت له ليس بالناقل

وقد أفحش ابن زيدون في هجاء ابن عبدوس في هذه الرسالة، إلى درجة نفرت ولادة من شاعرنا وجعلتها تبدله من المحبة بغضاً شديداً. ولم يزل ابن عبدوس يدبر له ويشير عليه خصومه؛ حتى جعلهم يدبرون له تهمة تبديد أموال كان قد أوثمن عليها، فزج به في السجن، وجعل يرسل رسائل الاستعطاف من محبسه إلى أبي الحزم بن جهور وابنه أبي الوليد - وكان هذا الأخير صديقاً للشاعر - فلم يسعفه

واحد منهما، فمضى يكتب على أصحابه دون جدوى؛ ولم ينسَ مع ذلك ولادة. فلما تقاعس النابيس كلهم عن إسعافه تبين «أن العاجز من لا يستبد، والمرء يعجز لا المحالة. ولم-أسْتَجِزْ أن أكون ثالث الأذنين: العبر والوتد، وذكرت أن القرار من الظلم والهرب مما لا يطلق من سنن المسلمين»<sup>(٨٢)</sup>، ومن ثم قرر الهرب، ودبر حيلة أفلت بها من المحبس، وربما كان أبو الوليد بن جهور قد أعانه على ذلك.

قضى ابن زيدون بعد هربه فترة من الزمن شريداً في أحواز قرطبة، مؤملاً أن يستطيع رؤية ولادة، ثم أرسل إليها «بنونيته» المشهورة يتشوق فيها إليها ويدعوها إلى اللحاق به. وقد قال فيها غرسية غومس: «إنها أجمل قصيدة حب نظمها الأندلسيون المسلمون، وغرة من أبدع غرر الأدب العربي كله، عارضها ناس كثيرون ولا زالوا يعارضونها إلى اليوم».

وإليك أبياتاً منها:

ينتم وبننا، فما ابتلت جوانحننا	شوقاً إليكم، ولا جفت مآفينا
نكاد -حين تاجيكم ضمائرنا -	يقضي علينا الأسي، لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا، ففدت	سوداً وكانت -بكم- بيضاً ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا	ومورد اللهو صافر من تصافينا
وإذ هصرنا غصنون الأنس دانية	قطوفها، فديننا منه ما شينا
ليُسقَ عهدكم، عهد السرور، فما	كنتم لأرواحنا إلا رياحيننا
من مبلغ اللبسينا بانتراحهم	حزناً مع الدهر لا يبلى ويثينا
أن الزمان -الذي ما زال يضحكنا	أنسا يقربكم -قد عاد يبيكنا
غريظ المدى من تساقينا الهوى فدعوا	بأن نغم، فقال الدهر: آمينا

فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا  
 وقد نكون وما يخشى تفرقنا  
 يا ساري البرق غادر القصر فاستق به  
 ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا  
 لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا  
 والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً  
 يا روضة طالما أجنحت لواحظنا  
 ويا حياة تعلينا بزهرتها  
 لسنا نسميك، إجلالاً وتكرمة  
 إذا انفردت فما شوركت في صفة  
 كأننا لم نبث والوصل ثالثنا  
 سران في خاطر الظلماء يكتمننا  
 يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها  
 إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً

ولم تجبه ولادة إلى ما طلب، فمضى «يستضيء بنور محياها في الليل البهيم»،  
 كما يقول ابن خاقان<sup>(٨٤)</sup>. ثم شفع له أبو الوليد بن جهور عند أبيه حتى عفا عنه،  
 فعاد إلى قرطبة ومضى يقرض المدائح في أبي الحزم بن جهور وآله، تحدث في بعضها  
 بما فعله أبو الحزم من تحريمه الخمر في قرطبة وأمره بكسر أوانيها، وعندما توفي  
 أبو الحزم في سنة ١٠٤٣/٤٣٥ قال فيه طائفة من المراثي<sup>(٨٥)</sup> ورثي كذلك زوج أبي  
 الحزم التي توفيت بعده بقليل<sup>(٨٦)</sup>.

أما ولادة فليس لدينا من أخبارها ما يدل على أنه كانت لها بعد ذلك صلة بابن

زيدون، ويبدو أنها انزوت عن الناس مقتصرة على صلتها بأبن عبدوس، حتى أدركتها المنية في سن عالية<sup>(٨٧)</sup>.

وقد دخل ابن زيدون بعد ذلك في خدمة أبي الوليد بن جهور، الذي خلف أباه في حكومة قرطبة؛ فاصطنع ابن زيدون «وأوسع راتبه وجلله كرامة لم تقنعه، فيما زعموا». ثم بعثه رسولاً إلى إدريس أمير مالقة، «فأطال الثواء هنالك، واقترب من إدريس، وخف نفسه، وأحضره مجالس أنسه، فعتب عليه ابن جهور وصرفه عن ذلك التصرف قبل قفوله، ثم عاد إلى جميل رأيه فيه، وصرفه في السفارة بينه وبين رؤساء الأندلس»؛ فذهب إلى بلنسية وبطليوس، واستقر به المطاف آخر الأمر في إشبيلية؛ حتى وجد الميدان فسيحاً لمطامحه، إذ أحسن المعتضد بن عباد لقاءه أملاً في الانتفاع به. وقد قال فيه ابن زيدون قصيدة من روائع شعره، وبلغ من إقبال المعتضد على ابن زيدون أن أقامه وزيراً له.

وكان المعتضد مجتهداً في القضاء على جيرانه البربر؛ حتى استولى على بلادهم واحدة بعد الأخرى، وسمت همته إلى توحيد بلاد المسلمين في الأندلس تحت رايته، وتشبه بأمراء المشرق في تقدير الشعر وإعلاء شأن أهله. وقد أشاد ابن زيدون بالأعمال الحربية التي قام بها المعتضد، خلال فترة اجتهاده في توسيع رقعة مملكة إشبيلية.

وعندما توفى المعتضد، استطاع ابن زيدون أن يحتل من ابنه المعتمد نفس المكانة التي كانت له عند أبيه، وصار من خواصه وصحابته، يجالسه في خلواته، ويسفر له في مهم رسائله على حال من التوسعة، وكان ذهابه إلى ابن عباد سنة ٤٤١. وقد بلغ تلك المكانة على رغم سعايات الحاسدين له من الحاشية (وخاصة ابن مرتين وابن عمار اللذين عملا على إبعاده).

وكان المعتمد قد انتقل إلى ترطبة بعد استيلائه عليها، فاصطحب ابن زيدون معه، فعاد إلى بلده وأهله وعلت مكانته عند ابن عباد، فزاد حسد الحاسدين له. وحدث بعد ذلك أن وقعت فتنة بإشبيلية، بسبب رجل يهودي بطش به مسلم، فثار له أهل ملته وتفاقم الأمر، فعجل المعتمد بإرسال نفر من كبار رجال دولته إلى إشبيلية لتلافي الفتنة، وأنفذ معهم ابن زيدون، فخرج «على بقية وعك كان متأماً منه» ثم أتبعه المعتمد يابته، «فتحدثت الناس بنبو مكان الأديب ابن زيدون عند السلطان». واستقر بابن زيدون وجعه «إلى أن قضى نحبه، وهلك بدار هجرته إشبيلية صدر رجب سنة ٦٢، (٥ رجب ٤٦٢/١٧ - ١٨ أبريل ١٠٧٠م)<sup>(٨٨)</sup>.

ويضع ابن بسام، ومن جاء بعده، آثار ابن زيدون في أربعة أبواب، هي: المدائح، والرسائل، والمراثي، والغزل أو النسب، وهذه الأضراب الأربعة من القصائد معروفة متواترة عند القدماء، وبالإضافة إلى هذه نظم ابن زيدون بعض شعره في بحر الرجز، وخلف تخميسين؛ والتخميس لون من الشعر يتكون من فقرات كل منها خمسة مصاريع، الأربعة الأولى منها على قافية واحدة، والخامس على قافية أخرى يلتزمها الشاعر في المصراع الخامس من كل فقرة في قصديته كلها. وقد استعمل ابن زيدون هذه الضروب الشعرية في غزلياته التي صاغها في شبابه، وفي مدح ممدوحيه وراثتهم حين صار شاعر بلاط<sup>(٨٩)</sup>.

ويلقب ابن زيدون بتيبولوس<sup>(٩٠)</sup> الأندلس، لما بين حياته وما جرى عليه من الحوادث وما عبر بذلك الشاعر اللاتيني من تشابه. بيد أننا لا نستطيع أن نقارن بين هذين الرجلين، فقد عاشا في عالمين مختلفين؛ ثم إن تهور ابن زيدون وعنفه لا يمكن أن يقارنا بحلاوة تيبولس ورقته.

وربما كان ابن زيدون قد استوحى منه من المتنبي الشاعر العربي طائر الصيت، فقد كان يقلده في أساليبه وأخيلته تقليداً، وهو لهذا «شاعر من طبقة

الفحول القدماء وطابعهم، وكان شعره لهذا جديراً بأن يتخذ مثلاً يحتذيه من جاء بعده من الشعراء، كما يقول أوجست كور، وقد ذهب إلى هذا الرأي كذلك أبو على بن رثيق القيرواني ومحمد بن صاره الشنتريني وأحمد المقري.

وقد أوحى حياة ابن زيدون وقصته مع ولادة إلى كاتب مسرحية محدث فكرة قصة مسرحية في ستة فصول طبعت في القاهرة في سنة ١٣٤٧ / ١٩٨٢<sup>(١١)</sup>.

(ب) إشبيلية

ف٢٢- المعتضد بن عباد

تمكن القاضي أبو القاسم محمد بن عباد (المتوفى سنة ٤٣٤/١٠٤٢) من القبض على نواصي الحكم في إشبيلية قبيل انتشار عقد خلافة بني أمية، وخلفه ابنه عباد الذي تلقب بالمعتضد (٤٠٣/١٠١٢ - ٤٦٢/١٠٦٩).

وقد كان ذا مزاج متناقض غريب، يجمع بين الدهاء والقسوة، والإحساس المترف، والعلم الواسع، والذوق الرفيع النفاذ. وكانت له - إلى ذلك - ذاكرة واعية، وقريحة شاعرية، جعلت معاصريه يضعونه في صفوف المبرزين من الشعراء. وأحاط المعتضد نفسه بهالة من الشعراء. جعلت همها مديحه، وأفرغ عليهم الأضوال فبدا في هيئة خلافة من العظمة.

وقد سلك في الاستبداد طريق سميّه المعتضد العباسي في بغداد، وحتى في مجالات اللهو والعبث والشراب، التي كان هو وشعراؤه يسرفون فيها في المتاع، كان يحرص على أن يبدو رئيساً مهيباً.

وكان هو وجلساؤه يرتجلون في خلواتهم خمريات هي غاية في رقة الذوق وجمال الأسلوب. وربما أودع شعره من المعاني ما يمس العقيدة، كقوله:

اشرب على وجه الصباح      وانظر إلى نور الأفق  
واعلم بأنك جاهل      إن لم تقل بالاصطباح<sup>(١)</sup>

وكان المعتضد لا يكل من العمل، لا يعادل تفننيه فيه إلا تراميه على ملذاته. وكان إذا أبغض إنساناً لم ينقع غلة حقه شيء، وقد بلغ من القسوة حدّاً جعله يتخذ جماجم أعدائه الذين أذاقهم الحتوف أصصاً يزرع فيها الزهر، ويزين بها

حديقته ويتلذذ بتأملها كما يتلذذ البخيل النظر إلى ماله؛ ومع ذلك فقد كان يحسب نفسه خير الملوك ويقول:

هذي السعادة قد قامت على قدم      وقد جلست لها في مجلس الكرم  
فإن أردت إلهي بالورى حسناً      فمأكني زمام العرب والمجم  
فإنني لا عدلتُ الدهرَ عن حسنٍ      ولا عدلتُ بهم عن أكرم التميم  
أقارعُ الدهرَ عنهم كل ذي طلب      وأطرد الدهرَ عنهم كل ما عرم<sup>(١٢)</sup>

وكان موفقاً في حروبه، فتمكن من القضاء على بعض إمارات الطوائف الصغيرة في جنوب الأندلس، وضم أراضيها إلى إشبيلية فاتسعت رقعتها، وأوحت إليه فتوحه بعض شعره، ومن ذلك ما قاله بعد أن حاز رندة وحصنها:

لقد حُصنت يا رندة      فصبرت للمكنا عتده  
أفادت ناك أرمحاح      وأسبب لهما حده  
وأج ناد أشداء      بهم تتهي الشده  
غمدوت يرونني مولى      لهم، وأراهم عده  
سأفتي مودة الأعداء      إن طالبت بسبي المده  
وتبلى بسبي ضلالتهم      ليزداد الهدي جده  
فكم من عدة قُتلت      ت منهم بعدهم عده  
نظمت رموسهم عقداً      فحلت لسبة السده<sup>(١٣)</sup>

وقد حفل بلاط بني عباد بحشد كبير من الشعراء، جُمع الكثير من شعرهم وأودع مجموعات المأثورات الأدبية التي ظهرت فيما بعد، ومن أولئك: أبو الوليد بن حبيب (توفي في ٤٤٠/١٠٤٨) وزير المعتضد، وأبو بكر بن القوطية نديم المعتمد،

وعلى بن حصن الذي أبدع في وصف «فرخ الحمام» بقوله:

وما هاجني إلا ابن ورقاء هاتف  
مُستقْ طوقٍ لازوردي كَلْكول  
أدار على الياقوت أجمانَ لؤلؤ  
حديداً شبا المنقار داج كأنه  
توسد من فرع الأراك أريكة  
وما رأى دمعي مسراهاً أرابه  
وحت جناحيه، وصفق طائراً  
على فنن بين الجزيرة والنهر  
موشى الطلّى أحوى القوادم والظهر  
وصاغ من العقيان طوقاً على الثغر  
شبا قلم من فضة مُدٌّ في حبر  
ونام على طيِّ الجناح مع النحر  
بكائي فاستولى على الفصن النضر  
طار بقلبي، حيث طار، ولا أدري<sup>(٩٥)</sup>

ف٢٣-المعتمد

بيد أن المعتمد (٤٣٢/١٠٤٠ - ٤٨٩/١٠٩٥) - ابن المعتضد وخليفته على عرش  
إشبيلية - يحتل في الأدب الأندلسي مكاناً أعظم وأهم من مكان أبيه وهو من  
شعراء العربية الذين أجمع الناس على الإعجاب بهم في العالم الإسلامي كله<sup>(٩٦)</sup>.  
وقال غريسه غومس عن شاعريته:

«إذا كان لا بد من تصوير المحنة التي شملت الشعر خلال ذلك العصر في صورة  
شخص واحد من أهله، فليس أوفق لذلك من المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية (٤٦١/  
١٠٦٨-٤٨٤/١٠٩١). كان أبوه المعتضد (٤٣٤/١٠٤٢-٤٦٢/١٠٦٩) صاحب  
الأفاعيل الشنيعة، وأبناؤه جميعاً - وخاصة «الراضي» الرقيق صاحب رندة - كلهم  
شعراء. ولكنه بزهم جميعاً وفاق كل معاصريه في ذلك المضمار؛ لأنه كان يمثل  
الشعر من ثلاثة وجوه، أولها: أنه كان ينظم شعراً يثير الإعجاب، وثانيهما: أن  
حياته نفسها كانت شعراً حياً، وثالثهما: أنه كان راعي شعراء الأندلس أجمعين  
بل شعراء الغرب الإسلامي كله، فإلى بلاطه لجأ شعراء صقلية وإفريقية عندما

غزا النورمان بلادهم، واستولوا على بعضها وتهددوا الباقي».

#### فا٢٤- المعتمد وابن عمار

بدأ المعتمد حياته السياسية عاملاً لأبيه على وُلبة، ثم قاد جيش إشبيلية الذي حاصر شلب عام ١٠٥٢/٤٤٤. وهنا بدأت مواهبه الشاعرية تتجلى، فقد لقي هناك أبا بكر بن عمار، وكان شاباً عربي الأرومة فقير المنبت درس الأدب في شلب وقرطبة، ثم مضى يذرع نواحي الأندلس في ملابس مستكرة بعض الشيء، وجعل يقول المدائح فيمن يمنحه العطاء، ولم يقصُرْ هذه المدائح على الأمراء والرؤساء على ما جرت به عادة كبار الشعراء إذ ذاك، ثم لم يلبث أن دخل على المعتمد، ولما كان كلاهما من عشاق المسرات والمغامرات والشعر الجميل، فقد توطدت بينهما أسباب المودة.

وقد اندفع المعتمد في حبه ابن عمار اندفاعاً شديداً صادقاً، في حين أن وداً ابن عمار للمعتمد لم يخلُ من الشكوك والريب أبداً. ولم يكن كصحابه الأمير، يؤمن بدوام الرخاء والهناء، وإنما كان رجلاً ذاق مرارة الخيبة التي يخلفها في النفس الكفاح الدائم في سبيل العيش، وكسب ابن عمار من حياته المجهدة كذلك شيئاً من الخبرة بطبائع البشر، ومن ثم كانت الهواجس السوداء تطوف بنفسه، وتلقي في روعه أنه فاقدٌ وداً المعتمد يوماً من الأيام<sup>(٧٧)</sup>.

وقد أبدع ابن عمار في قصيدة مَدَحَ بها المعتمد، معروفة ذاتمة في الأدب العربي يقول فيها:

أدر الزجاجة فالتسليم قد انبرى	والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره	لما استرد الليل منا العنبر
والروض كالحسنا كساه زهره	وشياً، وفأده نداء جوهيرا

أو كالغلام زها يورد رياضه  
 روض كأن النهر فيه معصم  
 وتهزه ريح الصبا فتخاله  
 عباداً المغضّر نائل كفه  
 نختار - إذ يهب الخريدة - كاعباً  
 ملك إذا ازدحم الملوك بمورد  
 خجلاً وتناه بأسرهن مُنذراً  
 صاف أطل على رداء أخضرا  
 سيف ابن عباد يبدد عسكراً<sup>(٨٧)</sup>  
 والجو قد لبس الرداء الأغبر  
 والطرفاً أجرداً والحسام مجوهر  
 - ونحاه - لا يردون حتى يصدرا  
 إلخ.....

قضى ابن عمار في إشبيلية أول الأمر زمناً رخيئاً، واشتغل المعتمد به عن أمور الدولة؛ فأنكر المعتضد ذلك وأراد أن يصرف ابنه عنه فتفاه من إشبيلية، فتوجه إلى سرقسطة؛ حيث أقام حتى مات المعتضد وصار الأمر للمعتمد، فاستقدمه وخيّرته في ولاية يتولاها، فاختر شلب، فأجابه المعتمد إلى ما طلب والألم يملأ نفسه لفراقه، ألم حرك شاعريته فقال بضعة أبيات ذكر بها أيام الشباب السعيدة في ذلك البلد مع صاحبه:

الاحي أوطاني «بشرلي» أبا بكر  
 وسلم على «قصر الشراجيب» عن فتى  
 منازل أساد ويض نواعم  
 فكم ليلة قد بت أنعم جنحها  
 ويض وسمر فاعلاتو بمهجتني  
 وليل بسد النهر لهواً قطعته  
 نضت بُردها عن غصن بان منعم  
 وسلهن: هل عهد الوصال كما أدري؟  
 له أبداً شوق إلى ذلك القصر  
 فتاهيك من غيل، وناهيك من خدر  
 بمغصبة الأرداف مجدبة الخصر  
 فمال الصفاح البيض والأسل السمر  
 بذات سوار مثل منعطف البدر  
 نضير كما انشق الكمام عن الزهر<sup>(٨٨)</sup>

دخل ابن عمار شلب دخول الأمراء في موكب حافل، ولكنه لم ينكر فضلاً لأحد ممن أحسنوا إليه في أيامه الخوالي، ثم جعله المعتمد وزيراً له وأعادته إلى جانبه، وقد أخذ شاعر شلب بنصيب وافر في الدفاع عن إشبيلية وذود النصارى عنها، وكانوا لا ينفكون ينوشون حدودها ويُغيرون على أراضيتها.

وترى له في ذلك قصة مشهورة - ذات طابع أسطوري خالص - تذكر كيف استطاع ابن عمار صرف الأذفونش (الفونسو السادس) عن أراضي إشبيلية «بالطف حيلة وأيسر تدبير»، كما يقول عبد الواحد المراكشي<sup>(١٠٠)</sup>: «فقد صنع سُفرة شطرنج في غاية الإتقان، فبلغ خبرها الأذفونش فلما خرج للقائه سأله عنها فقال: «أتيك بها على أن ألعب معك عليها فإن غلبتني فهي لك وإن غلبتك فلي حكمي». وغلب الأذفونش فطلب إليه ابن عمار أن يرجع فلم يسعه إلا الارتداد»<sup>(١٠١)</sup>.

وأعان ابن عمار المعتمد على ما كان بسبيله من توسيع رقعة إشبيلية، وخاصة في الاستيلاء على مرسية وانتزاعها من يد صاحبها ابن طاهر، وقد حاول ابن عمار في الوصول إلى ذلك بالاتفاق مع كُند برشلونة - رامُن بيرنجوير الثاني الملقب برأس الأسطب Capeza de estopa - على أن يعينه على ابن طاهر لقاء مبلغ من المال، وتَرَكَ الرشيدَ بنَ المعتمد رهينة عند رامُن؛ حتى يُدفع المال. ثم كتب إلى المعتمد بذلك فأبطأ عليه رده، وقلق الرشيد حين طال بقاؤه بيد أمير برشلونة، ووجد ابن عمار نفسه في مركز حرج، فأدركه الغضب على أميره وبعث إليه بالأبيات التالية من «جَيَان»:

أَصْدُقْ ظَنِّي أَمْ أَمْسِخْ إِلَى صَحْبِي	وَأَقْضِي عَزِيمِي أَمْ أَعُودْ مَعَ الرِّكْبِ
إِذَا أَنْقَدْتُ مَعَ رَأْيِي مَشَيْتُ مَعَ الْهَوَى	وَإِنْ أَتَقَبَّيْتُ نَكَصْتُ عَلَى عَقْبِي
وَإِنِّي لَتَشْتِي إِلَيْكَ مَوْدَةً	يَفْيَرُهَا مَا قَدْ تَمَرَّضُ مِنْ ذَنْبِي

فما أغرب الأيام فيما قضت به  
أخافك لحق الذي لك في دمي  
وكم قد فزرت يمناك بي من ضريبة  
وأعلم أن العفو منك سجية  
ولي حسنات لو أمت ببعضها  
إلى الدهر لم يرتع لثابتة مرزني<sup>(١٠٧)</sup>

وصفح المعتمد عما بدر من ابن عمار وكتب إليه:

تقدم إلى ما اعتدت عندي من الرحبو  
متى تلقني تلق الذي قد بكولته  
سأوليك مني ما عهدت من الرضا  
فما أشعر الرجمن قلبي قسوة  
تكلفته أبقي بولك سلوة  
ورب تلقك العتبي حجاباً من العتبي  
صفوحاً عن الجاني روفاً على الصحب  
وأعرض عما كان إن كان من ذنب  
ولا صار نسيان الأذمة من شرابي  
فليس يماني الشرع مشترك اللب

ثم تمكن ابن عمار من الاستيلاء على مرسية بمعاونة ابن رشيق صاحب حصن  
بَلَش (Velez الحالية)، فملكه العجب الشديد بنفسه وأخذ هيئة الأمراء في  
المناسبات الحافلة، وحاكى المعتمد «في التعبير وكتب: (ينفذ هذا إن شاء الله) في  
أسفل قرطاسه، وتختّم في كاتا يديه»<sup>(١٠٨)</sup>

فبدأت الشكوك تساور نفس المعتمد، وفوجئ بالأمر فتغيرت نفسه وخشي أن  
يكون صديقه القديم مشتغلاً بالتدبير عليه. ولا يمكننا القطع بأن ابن عمار كان  
يفكر في الوثوب بالمعتمد، فقد كان مخلصاً لأميره وإن لم يتحمس له ويندفع  
نحوه كما كانت حال المعتمد معه.

وكان صادقاً حين قال:

ولا أنا ممن غيرته الحوادث  
 ليناى بحظي منك ثان وثالث  
 ولا نفحت تلك المسجايا الدماث  
 حلاوته عنى الرجال الأخابث  
 لدي، ولا أني لمهدك ناكث  
 كما ساعدت صوت المثاني الثالث<sup>(١٠٥)</sup>  
 تجافت لنا عنها الخطوب الكوارث  
 نهائياً وللأيام أيدي عوابث  
 إذا مت عنها قام بعدي وارث  
 قديماً كبا هافر وأدرك رائث<sup>(١٠٦)</sup>  
 تبين بكفّيك الحبال الرثائث  
 وقد غاب عني لخواطر باعث  
 تحل عراه الماقدات التوافث<sup>(١٠٧)</sup>

لك المثل الأعلى وما أنا حارثا  
 ولا شاركته الشمس في وإنه  
 فديتك ما للبشر لم يمتربرقه  
 أظن الذي بيني وبينك أذهبت  
 تنكرت، لا أنى لفضلك ناكث  
 لو لکن ظنون ساعدتها سخائم  
 أبعد انقضا خمس وعشرين حجة  
 حلت يداً بي هكذا وتركتني  
 وهل أنا إلا عبد طاعتك التي  
 أعد نظراً لا توهن الرأي إنه  
 ستذكرني إن بان حيلي وأصبحت  
 وتطلبني إن غاب للرأي حاضر  
 أعوذ بمهد نطئه بك أن ترى

والصحيح أن ابتعاد ابن عمار الطويل عن إشبيلية أتاح الفرصة لأولئك «الرجال الأخابث» لإفساد نفس المعتمد عليه، وكان من بينهم الوزير أبو بكر بن زيدون، ابن أبي الوليد بن زيدون شاعر قرطبة أنف الذكر، وزاد الحال سوءاً أن ابن عمار لم ينفذ ما أمر به المعتمد من إطلاق سراح ابن طاهر، مما أسرع بشاعر شلب إلى حتفه، ذلك أن ابن طاهر احتال للهرب من محبسه، وعاونه في ذلك ابن عبد العزيز صاحب بلنسية، فملك الغضب ابن عمار ونظم قصيدة يحض فيها أهل بلنسية على الوثوب بابن عبد العزيز، قال فيها: <sup>(١٠٨)</sup>

تخبر بلنسية، وكانت جنة أن قد تدلست في مسواء السنار

غدرت وفتياً باليهود وقلموا  
عثر الويل في سعى إلى القدارا  
جازوا بني عبد العزيز قناهم  
جروا إليكم أسوا الأقدار  
ثوروا بهم مستأولين وقلموا  
ملكاً يقوم على العدو بثار  
هيهات تطمع في النجاة لطالب  
ساع إذا ونت الكواكب سار  
جرار أذيال القنا ظنوا به  
قد زاركم في الجحفل الجرار<sup>(١٠٧)</sup>

وعلم المعتمد بالأمر، واطلع على قصيدة ابن عمار، فغضب عليه غضباً شديداً؛ لأن ابن عبد العزيز كان صديقاً له، وعارض شعر ابن عمار بأبيات يسخر فيها منه قال:

كيف التقلت بالخديفة من يدي  
رجل الحقيقة من بني عمار؟  
إلى أن يقول:

الأكثرين مسوذاً ومملكا  
ومتوجاً في سالف الأعصار  
والمؤثرين على العيال بزادهم  
والضاررين لهامة الجبار  
الناهضين من اليهود إلى العلال  
والمنهضين الفار بعد الفار<sup>(١٠٨)</sup>

وحركت سخرية المعتمد دواعي الغضب في نفس ابن عمار وأفلت زمامه من يده، فكتب قصيدة بالفة العنف ذم فيها المعتمد وآله وزوجه الرميكية<sup>(١٠٩)</sup>، وحصلت في يد المعتمد نسخة منها بخط ابن عمار، فلما علم هذا الأخير بذلك هلعت نفسه، وفر من مرسية ولجأ إلى الأذفونش فأساء استقباله وازور عنه، فانصرف عنه إلى سرقسطة ومضى يعين صاحبها في أموره؛ ثم حاول الاستيلاء على «شقورة» فوقع في أسر صاحبها في أثناء المحاولة، وعرض أسيره أن يسلمه لمن يدفع فيه أكبر مبلغ، فبذل المعتمد أقصى ما كان الرجل يطلبه وحصل ابن عمار في يده. وقد حاول ابن عمار أن يظفر بصفح المعتمد، وجرى بينهما ما أحيى في نفس الشاعر ذبالة من

الأمل، ولكن الأمل لم يلبث أن خبا بسبب سعايات ابن زيدون؛ وانتهى أمر ابن عمار بأن مات قتيلاً بيد المعتمد<sup>(١١٢)</sup>.

ف٢٥- اعتماد

وهناك شخصية أخرى تجلّت في بلاط المعتمد وكان لها أثر بعيد في إنتاجه الشعري، تلك هي اعتماد الرميكية التي كانت جارية تاجر من مياسير إشبيلية يسمى «رميك». وقد صادفها المعتمد في إحدى نزواته مع صاحبه ابن عمار وأعجب بها؛ إذ أجازت على البديهة شطر بيت عجز عن إتمامه ابن عمار نفسه، فاشتراها من صاحبها وتزوجها.

كان حديث اعتماد يفيض عذوية وطلاوة وكانت طلعتها مُسعدة، حاضرة الجواب، بارعة الردود، وكانت فيها رقة طبيعية غالبية ومرحٌ لطيف تشويه سذاجة الطفولة ولكئها كانت تسرف في دلالاتها ونزواتها إلى حدٍ يضيق عنه صبر المعتمد.

ومن نزواتها المسرفة ما تحكيه الكتب من أنها طلبت إلى المعتمد أن يريها الثلج فزرع لها أشجار اللوز على جبل قرطبة؛ حتى إذا نُورَ زهرها بدت الأشجار وكأنها محملة بالثلج الأبيض، ومنها تمنيتها أن تسير في الطين برجليها كما رأت الناس يفعلون، فأمر المعتمد بأن يُنثر لها في رحبة القصر الكافور والطيوب وأن تعجن بماء الورد؛ حتى صار كالطين وخاضت فيه مع جورايبها<sup>(١١٣)</sup>.

وقد أبغضها الفقهاء ورموها بأنها «ورطت المعتمد فيما ورطته من الخلاعة والاستهتار والمجاهرة؛ حتى كتب عليه أهل إشبيلية بذلك وبتعطيل صلوات الجُمع عقوداً، ورفعوها إلى أمير المسلمين»<sup>(١١٤)</sup>. ولم تكن هي لتلقى بالأى أولئك الرجال الذين بذلوا قصاراهم في إزالة ملك بني عباد، ومضى المعتمد على حاله معها فلم يقصّر في شيء يجلب إلى نفسها السرور، وقد بلغ من إعزازها إياها أن صنع أبياتاً

يبدأ كل منها بحرف من حروف اسمها وهي:

أغاثبة الشخص عن ناظري	وحاضرة في صميم الفواد
عليك السلام بقدر الشجون	ودمع الشئون وقدر السهاد
تمكنت مني صعب المرام	وصادفت مني سهل القياد
مرادي أعياك في كل حين	فيا ليت أني أعطى مرادي
أقيمي على العهد في بيننا	ولا تستحيلي لطول السعاد
دسست اسمك الحلو في طيه	وألفت لمنه حروف «اعتماد» <sup>(١١٥)</sup>

وقال المعتمد فيها كذلك شعراً كثيراً نختار منه هذه الأبيات :

كَبَيْتُ وَعِنْدِي مِنْ فِرَاقِكِ مَا عِنْدِي	وَفِي كَيْدِي مَا فِيهِ مِنْ لَوْعَةِ الْوَجْدِ
وَمَا خَطَبْتُ الْأَقْلَامُ إِلَّا وَأَدْمَعِي	تُحِطُّ كِتَابَ الشُّوقِ فِي صَفْحَةِ الْخَدِ
وَكَلَّوْا طَلَابُ الْمَجْدِ زُرْتُكَ طَيِّبُهُ	عَمِيداً كَمَا زَارَ النُّدَى وَرَقَّ الْوَرْدُ <sup>(١١٦)</sup>

٢٦ - شعراء بلاط المعتمد - ابن حمديس الصقلي

ليس من الغريب - وأمير الدولة ووزيرها شاعران - أن يظفر الشعراء بحظوة كبيرة في بلاطها، ولقد قال ابن خاقان: إن المعتمد «ملك قمع العدا، وجمع الباس والندى، وطلع على الدنيا بدر هدى، لم يتعطل يوماً كفه ولا بنانه، آونة يراعه وآونة سنانه، وكانت أيامه مواسم، وثغور بره بواسم، ولياليه كلها درراً، وللزمان أحجالاً وغرراً، لم يغفلها من سمات عوراف، ولم يُضجها من ظل إيناس وارف، ولا عطلها من مآثرة بقي أثرها بادياً، ولقي معتفيه منها إلى الفضل هادياً، وكانت حضرته مطمئناً للهمم، ومسرحاً لآمال الأمم، وموقماً لكل كمي، ومقذفاً لذي أنف حمى، لم تخل من وفد، ولم يصح جوها من انسجام رقد، فاجتمع تحت لوائه

من جماهير الكماة، ومشاهير الحماة، أعداد يقصُّ بهم الفضاء، وأنجاد يزهى بهم النفوذ والمضاء، وطلع في سمائه كل نجم متقد، وكل ذي فهم منتقد، فأصبحت حضرته ميداناً لرهان الأذهان، وغاية لرمي هدف البيان، ومضماراً لإحراز خصل في كل معنى وفصل،<sup>(١١٧)</sup>.

وإلى هذا كله كان المعتمد نقادة دقيقاً للشعر لا يجيز إلا الجيد منه، وكان المجيد يظفر منه بكرم واسع.

وقد ألقى الشاعر عبد الجليل بن وهبون بين يديه البيتين التاليتين:

غاض الوفاء فما تلقاه في رجل      ولا يمر بمخلوق على بال  
قد صار عندهم عنقاء مفرية      أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال

فقال المعتمد: «عنقاء مفرية وألف مثقال يا عبد الجليل عندك سواء؟» فقال:

«نعم» فقال: «قد أمرنا لك بألف دينار، وبألف دينار أخرى تفتقها»<sup>(١١٨)</sup>.

وقد حفل بلاط المعتمد بشعراء شاركوا فيما عبر به من صروف، ومن أولئك ابن زيدون حاسد ابن عمار وعدوه، والحصري الملح في الطلب في غير حياء؛ حتى لقد لقي المعتمد في طنجة وهو في طريقه إلى المنفى فلم يستح من مطالبته بالعطاء<sup>(١١٩)</sup>، وابن اللبانة الداني<sup>(١٢٠)</sup> الذي يعتبر مثلاً في الوفاء وإخلاص الود، وقد أقام إلى جانب المعتمد يؤنسه في محبسه.

وفي هذا البلاط كذلك نجد «الجارية العبّادية»<sup>(١٢١)</sup> التي أهداه إياها مجاهد صاحب دانية، وكان لها في نفس المعتمد مكانٌ عظيم، والراضي بن المعتمد نفسه، وكان شاعراً مجيداً<sup>(١٢٢)</sup>، وبثينة ابنة المعتمد من اعتماد، وقد بيعت سبية في وثاقها عندما استولى المرابطون على إشبيلية، فاشتراها تاجر إشبيلي واستخلصها

من بين الأسرى، فكتبت إلى أبيها أبياتاً بارعة تستأذنه في الزواج من ابن منقذها<sup>(١١٣)</sup>.

وكان عبد الجبار بن حمديس الصقلي أحد شعراء بلاط المعتمد، وأصله من سرقوسة بصقلية، بارح بلده عندما استولى عليها النورمان في سنة (١٠٧٨/٤٧٠) وأقبل إلى الأندلس وألم ببعض نواحيها، ثم استقر في إشبيلية؛ فلم تلبث براعته في ارتجال الشعر أن ظهرت، وحظي من المعتمد بمكان جميل<sup>(١١٤)</sup>. ولما كان ذا عهد بالحروب وقراع الأسنة، فقد صاحب المعتمد إلى ميادين حروبه. وعندما أسر المعتمد ونفي إلى أغمات رافقه ابن حمديس إليها، واجتهد في التخفيف عنه بقصائد جميلة، ثم انصرف إلى إفريقية وعاش رديحاً من الزمن في المهديّة، ثم انتقل إلى تونس وظلّ فيها إلى آخر أيامه.

و «ديوان» ابن حمديس مشهور متداول، وقد نشر «أماري» منه جزءاً وأشعاره تعرض جوانب من حياته: شبابه ومغامراته في إفريقية، والحنين إلى وطنه الأول، ومدائح قالها فيمن اتصل بهم من الأمراء وذوي الشأن.

وأما فيما يتصل بالأندلس، فإننا نجد في شعر ابن حمديس إشارات أدبية وحرية، وهو يذكر إقباله على المعتمد وسجن هذا الأخير. وأحسن أشعاره تلك التي يذكر فيها وطنه. ولابن بسام فيه رأي جميل<sup>(١١٥)</sup>.

ف٢٧- شعر المعتمد في سعوته

بيد أن المعتمد لم يزل طول حياته أبرز الشخصيات الأدبية في عصره، وأشعاره تنقسم بطبيعة الحال إلى قسمين: ما قاله أيام ملكه وإقبال الدهر، وما قاله في منفاه حين اجتمعت عليه الهموم وعبست له الأيام.

ومن لطيف شعره ما قاله وهو بعد أمير، وقد أرسله أبوه المعتضد على رأس جيش رمى به مألقة، فانهزم المعتمد من جراء إهماله فغضب أبوه غضباً شديداً،

وخاف سورة أبيه فكتب إليه أبياتاً لم تلبث أن ذهبت بفضيه وأعدت إليه صفوه:

لم أوت من زميتي شيئاً الذبه  
ولا تملكني دل ولا خفسر  
رضاك راحة نفسي، لا فجمعت به  
وهو المدام التي أسلو بها، فإذا  
أجل، ولي راحة أخرى كلفت بها:

فلمست أعرف ما كأس ولا وتر  
ولا سببا خلدي غنج ولا حور  
فهو العتاد الذي للدهر أدخر  
عدمتها وقَدَدْتُ في قلبي الفكر  
نظم الكلى في القنا والهيام تنتثر<sup>(١٢٧)</sup>

وعندما فتح قرطبة قال متحدثاً عنها كما لو كانت غانية جميلة ذات صلف:

من الملوك بشأو الأُمَيِّد البطل  
خطبت قرطبة الحسناء إذ منعت  
وكم غدت عاطلاً حتى عرضت لها  
عرس الملوك، لنا في قصرها عرس  
فراقبوا عن قريب - لا أبالكم -

هيهات جاعتكم مهترية، الدول  
من جاء يخطبها بالبيض والأسل  
فأصبحت في سرى الحلى والحلل  
كل الملوك به في مأثم الوجل  
هجوم ليث بدرع الباس مشتمل\*

(\*) «القلائد»، ص ١٢.

كان من المؤلفين عند شعراء العرب الحديث عن المدن كما لو كانت زوجات من البشر، وقد انتقل هذا إلى الأناشيد الشعبية الإسبانية، ومن هذا ما نراه في القصة الشعرية التي تدور حول شخصية أسطورية اسم صاحبها ابن عمار أيضاً، وفيها نقراً:

وهنا، تحدث الملك الدون خوان - استمعوا جيداً إلى ما قال:

إن أردت يا غرناطة تزوجتك،

وأعطيتك صداقا قرطبة وإشبيلية!

فقالنا:

«إني متزوجة أيها الملك الدون خوان - متزوجة ولست بأرملة، إن العربي الذي يحوزني

يحبني حباً عظيماً» (المؤلف).

٢٨٠. المرابطون في إشبيلية

ويصور لنا المعتمد الحياة الرخية التي كان ينعم بها في إشبيلية في شعر كثير،

منه قوله:

وَأَلَّيْلُ قَدْ مَدَّ الظَّلَامَ رِدَاءً	وَلَقَدْ شَرِيتُ الرِّاحَ يَسْطَعُ نُورَهَا
مَكَامًا كُنَاهُ بِهَجَاةٍ وَيَهَاءً	حَتَّى تَسْبُدَى السِّدْرُ فِي جُوزَائِهِ
لَأَلَا رَهَا فَاسْتَكَمَلَ اللَّالَاءُ	وَتَنَاهَضَتْ زُهْرُ النُّجُومِ يَحْفُهُ
جَعَلَ المِظْلَةَ فَوْقَهُ الجُوزَاءُ	لَمَّا أَرَادَ أَنْ نَزَّهَا فِي غَمْرِيهِ
رُفِعَتْ لُرِّيَّاهَا عَنِّيهِ لِوَاءُ	وَكِرَى الكَوَاكِبِ كَالْمَوَاكِبِ حَوْلَهُ
وَكُوَاعِبَ جَمَعَتْ سَنَا وَسَنَا	وَحَكِيئَتُهُ فِي الأَرْضِ بَيْنَ مَوَاكِبِ
مَلَّتْ لَنَا هَذِي الكُثُوسُ ضِيَاءُ	إِنْ نَشِرتْ تِلْكَ السُّدُوعُ حَنَابِسَا
لَم تَأَلُ تِلْكَ عَلَى التُّرَيْكِ غِنَاءُ	وَإِذَا تَنَقَّصَتْ هَمَزُهُ فِي مَرْفَعِ

وقد كان المعتمد متخوفاً من ناحية المرابطين، لا تزال الهموم تساوره بسبب نجمهم الصاعد وقوتهم المتزايدة في إفريقية، وأراد القدر أن تصدق هذه المخاوف في عهد ابنه المعتمد، فقد اشتد ضغط النصارى على إشبيلية، ووجد الرجل نفسه مضطراً إلى الاستجداد بالمرابطين بعد تردد طويل، ونصحه ابنه الرشيد بالعدول عن ذلك وخوفه من المرابطين، فأجابه قائلاً: «أي بني، والله لا يُسمع عني أبداً أني أعدت الأندلس دار كفر، ولا تركتها للنصارى فتقوم عليّ اللعنة على منابر الإسلام مثلما قامت على غيري. حرز الجمال -والله- عندي خير من رعي الخنازير»<sup>(٥)</sup>

ثم اضطر بعد ذلك إلى الاستجداد بالسليطيين (الفونسو السادس) عندما اشتد بلاؤه بالمرابطين، فأقبل ألفونسو إلى إشبيلية بعد قوات الأوان.

(٥) «نضح»، ج ٢، ص ٦٢٤.

وقد وقف الفقهاء إلى جانب المرابطين وتآلبوا على أمراء الأندلس، ومضوا يكثرون فيهم ويتهمونهم بالمروق عن الدين، وانقلب المرابطون من معينين للملوك الطوائف إلى غزاة لبلادهم، واستولوا على معقلهم واحداً بعد واحد، وسقطت إشبيلية في أيديهم في سنة ١٠٩١/٤٨٤ بعد صراع عنيف مع المعتمد وأبنائه. يقول ابن اللبّانة: «فلما وصل (المعتمد) إلى «باب الصباغين» وجد ابنه «مالكا» مقتولاً، فاسترحم له ودخل القصر. وزاد الأمر بعد ذلك، ودُخِلَ البلد من كل جهاته فطلب الأمان له ولمن معه، فأمن وجميع من له، وأعدت له مراكب واجتاز إلى طنجة»<sup>(١٢٨)</sup>.

وصار المعتمد وأبناؤه أسرى في أيدي المرابطين، فحملوهم إلى طنجة. وقد ودعهم أهل إشبيلية وداعاً مؤثراً بلسان ابن اللبّانة حيث قال:

حموا حريمهم حتى إذا غلبوا	سقوا على نسق في حبل مقتاد
وأنزلوا عن متون الشهب واحتملوا	فوثق لهم لستك الخيل أنداد
وعيث في كل طوق من دروعهم	فصبيغ منهن أغلال لأجياذ
نسيت إلا غداة النهر كونهم	في المنشآت كأموات بالحداد
والناس قد ملثوا العبرين واعتبروا	من لولس طافيات فوق أزياد
حطّ القناع فلم تُستر مخرّة	ومزقت أوجه تمزيق أبراد
حان الوداع فضجت كل صارخة	وصارخ من مفداة ومن فساد
سارت سفاتهم والنوح يصحبها	كانها إبل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملت	لك الفطائح من قطعات أكباد
من لي بكم يا بني ماء السماء إذا	ماء السماء أبي سقيا حشا الصادي <sup>(١٢٩)</sup>

ولما بلغ المعتمد طنجة في طريقه إلى منفاه؛ لقيه الحصري الشاعر «فجرى معه على سوء عادته من قبح الكدية وإفراط الإلحاف»، وسأله جائزة؛ فأبت أريحيته إلا أن يبعث له بكل ما كان معه: ستة وثلاثين مثقالاً، «فطبع عليها وكتب معها بقطعة شعر يعتذر عن قتلها»<sup>(١٣٠)</sup>.

٢٩- شعر المعتمد في منفاه

وفي ظلال الأسر وآلامه، قال المعتمد في منفاه في أغمات أصدق أشعاره عاطفةً، وأبلغها في النفس أثرًا. بعثت معانيها في نفسه الآلام التي عاناها خلال السنوات الأخيرة من عمره، قال في الأغلال التي كان ينوء بها:

تَعَطَّفَ فِي سَاقِي تَعَطَّفَ أَرْقَمِ      يُسَاوِرُهَا عَضًا بِأَنْيَابِ ضَيْقِمِ  
إِلَيْكَ فَلَوْ كَانَتْ قُبُودُكَ أَسْمَعِرْتَ      تَضَرَّمْ مِنْهَا كُلُّ كَفٍّ وَمِعْصَمِ  
وَإِنِّي مَنْ كَانَ الرِّجَالُ بِسَنِيهِ      وَمَنْ سَيْفِهِ فِي جَنَّةٍ أَوْ جَهَنَّمِ<sup>(١٣١)</sup>

وكانت ذكريات الأيام السعيدة الخالية تطوف بذهنه فيقول:

كُنْتُ حَلَفَ التُّدَى وَرَبَّ السَّمَاخِ      وَحَبِيبَ النُّفُوسِ وَالْأَرْوَاحِ  
إِذِ يَمِينِي لِلْبَدَلِ يَوْمَ الْعَطَايَا      وَلِقَبْضِ الْأَرْوَاحِ يَوْمَ الْكِفَاحِ  
وَتَبَمَالِي لِقَبْضِ كُلِّ عَنَانٍ      يُحَرِّمُ الْخَيْلَ فِي مَجَالِ الرَّمَاخِ  
وَأَنَا الْيَوْمَ زَهْنٌ أَسْرٍ وَقَفِيرٍ      مُسْتَبَاحُ الْحَمَى مَهِيضُ الْجَنَاحِ  
لَا أُجِيبُ الصَّرِيخَ إِنْ حَضَرَ النَّا      سِ وَلَا الْمُتَقَمِّينَ يَوْمَ الْمُسَامِحِ  
عَادَ بَشْرِي الَّذِي عَهَدْتَ غُومًا      شَقَلْتَنِي الْأَشْجَانُ عَنِ أَفْرَاحِي  
هَالِئِمَاحِي إِلَى الْمُسَيُونِ كَرِيَّةً      وَلَقَدْ كَانَ نَزْهَةً اللَّمَّاحِ\*

ويقول غرسية غومس في هذا الصدد: «وكان ألم المعتمد على الحقيقة المأ نفسياً روحياً، مبعثه التباين بين حياته الماضية وحياته في المنفى، وأساسه الاختلاف الواضح بين الحضارة التي كان يعيش في ظلها والبربرية التي وجد نفسه بين أنيابها في منفاه، ذلك الاختلاف البعيد بين قصور إشبيلية وبين أكواخ المغرب وما فيها من مرارة:

بَكَى الْمُبَارَكُ فِي إِثْرِ ابْنِ عِبَادٍ      بَكَى عَلَى أَثْرِ غَزْلَانٍ وَأَسَادِ

(\*) نيكل: مختارات، ص ١٠٠

بَكَتْ ثُرَيَّا لَا غَمَّتْ كَوَاكِبُهَا      بِمِثْلِ نُورِ الثَّرِيَّا الرَّائِحِ الْغَادِي  
بَكَى الْوَحِيدُ بَكَى الزَّاهِي وَقَبِيئُهُ      وَالنَّهْرُ وَالْتَاجُ كُلُّ ذَلِكَ بَادِي<sup>(١٣٢)</sup>

وكان يُرى في قطرات دمه خضرة أشجار زيتون «الشرف»، وبياض المنازل على شواطئ النهر عند طرّيقه، كما يرى السحرة الأشياء في كرة البلور.

ولقد كان يستثير شجونه أن يجد يده خلواً مما تجود به - وهو الجواد صاحب الندى - وأن يجد سيفه عاطلاً مهملاً، ورماحه يرين عليها الخمول والصدأ:

تَبَدَّلْتُ مِنْ عَزِّ ظِلِّ الْبُنُودِ      بِذُلِّ الْحَدِيدِ وَتَمَسَّلَ الْقَيْدُ  
وَكَانَ حَدِيدِي سِنَانًا ذَكِيحًا      وَعَضِيًّا ذَقِيحًا صَقِيلَ الْحَدِيدِ  
فَقَدَّ صَارَ ذَاكَ وَذَا أَدَهْمَا      يَعْضُ بِسَاقِي عَضُّ الْأَسْوَدِ<sup>(١٣٣)</sup>

أو:

كَذَا يَهْلِكُ السَّيْفُ فِي جَفْنِهِ      إِذَا هَزَّ كَفِّي طَوِيلَ الْحَنِينِ  
كَذَا يَمْطَشُ الرُّمْحُ لَمَّ أَعْتَمَلُهُ      وَكَمْ تُرْوَهُ مِنْ نَجِيعِ يَمِينِي<sup>(١٣٤)</sup>

وكانت تتمثل في ذهنه مآسي حياته كلها: لقد وقعت إحدى بناته بين براثن الأسر وبيعت رقيقة، واشتراها تاجر وزوجها من ابنه، ونزع واحد ممن بقى له من البنين إلى الثورة وانتضى لناوشة المرابطين، وشكت زوجه وبناته - اللاتي كنّ يسرن بأرجلهن في العنبر والكافور - مرارة الفقر والمهانة، واضطرورن إلى الغزل بأيديهن ليكسبن عيشهن:

فِيمَا مَضَى كُنْتُ بِالْأَعْيَادِ مَسْرُورًا      فَسَاعَكَ الْعِيدُ فِي أَغْمَاتِ مَاسُورَا  
تُرَى بِنَاتِكَ فِي الْأَطْمَارِ جَائِعَةً      يُفْزِلُنَ لِلنَّاسِ مَا يَمْلِكُنَ قَطْمِيرَا  
بَرَزْنَ نَعْوِكَ لِلتَّسْلِيمِ خَاشِعَةً      أَبْصَارُهُنَّ حَسِيرَاتٍ مَكَامِيرَا  
يَطَّأْنَ فِي الطَّيْنِ وَالْأَقْدَامُ حَاقِيَةً      كَأَنَّهَا لَمْ تَطَّأْ مَسْكًا وَكَافُورَا

كان كل شيء حوله يستدعي أحزانه وشجونه، فمضى يتفنى بالرياح

والطيور خاصة، وجعل يقول الشعر مخاطباً سرياً من القطأ حلفت بأجنحتها عالياً  
في الفضاء:

مَنَوايَحَ لَا سَبَجْنَ يَمُوقُ وَلَا كَبَلُ  
وَلَكِنَّ حَيَّنَا إِنْ شَكَلِي لَهَا شَكْلُ  
وَجِيعٌ وَلَا عَيْنَايَ يُبْكِيهِمَا تُكَلُّ  
وَلَا ذَاقَ مِنْهَا الْبُعْدَ عَنِ أَهْلِهَا أَهْلُ  
إِذَا اهْتَزَّ بَابُ السَّجْنِ أَوْ صَلَّصَلْ  
سَبَوايَ يُحِبُّ الْعَيْشَ فِي سَاقِهِ كَبَلُ  
فَلِإِنْ فَرَاخِي خَانَهَا الْمَاءُ وَالظَّلْمُ

بَكَيْتُ إِلَى سَرِيهِ الْقَطَأِ إِذْ مَرَدَّنْ بِي  
وَكَمْ تَكُ - وَاللَّهِ الْمَعِيدُ - حَسَادَةٌ  
فَامْرَحُ فَلَا شَمْلِي صَدِيعٌ وَلَا الْحَشَا  
هَتِيئًا لَهَا أَنْ لَمْ يُفَرِّقْ جَمِيعُهَا  
وَأَنْ لَمْ تَبِتْ مَثَلِي تُطَيِّرُ قُلُوبُهَا  
لِنَفْسِي إِلَى لُقْيَا الْحَمَامِ تَشْوُفًا  
أَلَا عَمَّكُمْ اللَّهُ الْقَطَأُ فِي فَرَاخِهَا

وينشد على لسان قمرية فقدت إلفها:

مَسَاءٌ وَقَدْ أَخْنَى عَلَيَّ إِلْفَهَا الدَّهْرُ  
وَمَا تُطَقَّتْ حَرْفًا يَبُوحُ بِهِ سِرُّ  
وَكَمْ صَخْرَةٌ فِي الْأَرْضِ يَجْرِي بِهَا نَهْرُ  
وَأَبْكِي لِأَلْفِهِ عَدِيدُهُمْ كَثْرُ  
يُمَزَّقُ ذَا فَتْرٍ وَيُفَرِّقُ ذَا بَحْرُ  
بِقُرْطِيبَةِ النُّكْدَاءِ أَوْ رُبْدَةِ الْقَبْرِ  
وَإِنْ لَوَّمْتَ نَفْسِي فَصَاحِبُهَا الصَّبْرُ  
لِمَثَلِهِمَا فَلْتَحْزَنِ الْأَنْجُمُ الزَّهْرُ<sup>(١٣٧)</sup>

بَكَيْتُ أَنْ رَأَيْتُ الْإِلْفَيْنِ ضَمَمَهُمَا وَكُرُ  
وَنَاحَيْتُ فَبَاحَتْ وَأَسْتَرَاخَتْ بِسَرِّهَا  
فَمَا لِي لَا أَبْكِي؟ أَمْ الْقَلْبُ صَخْرَةٌ؟  
بَكَيْتُ وَاحِدًا لَمْ يُشْجِهَا غَيْرُ فَتَدْرُ  
بُنِي صَنْفِيرًا أَوْ خَلِيلَ مُوَافِقُ  
وَنَجْمَانِ زَيْنَ لِلزَّمَانِ احْتَوَاهُمَا  
عُذِرْتُ إِذْنِ إِنْ ضَنَّ جَفَنِي بِقَطْرَةٍ  
فَقَلَّ لِلنُّجُومِ الزَّهْرُ تَبْكِيهِمَا مَعِي

أو يصف زوجاً من الغريبان وقفا على حائط، شأن من ترميه الأيام في ضيق  
المحابس، لا يزال يتعزى بذكر الطيور، ولسان حاله يردد الأنشودة الإسبانية  
القديمة:

«أثكلتيها رامي نبال،

لقاء الله شر الجزاء<sup>(١٣٧)</sup>.

وإن المعتمد ليذكرنا -وهو يرسف في كبوله، وينوء تحت ثقل همومه- بشخصيات الملوك المؤثرة في المآسي القديمة.

وكان يتعزى أثناء هذه المحنة برؤية نقر من الشعراء كان عرفان الجميل يدفعهم إلى زيارته في منفاه، ومن أولئك أبو محمد الحجاري -الذي تلقى من نفحات المعتمد ذات مرة ملاً جزيلاً افتتح به دكاناً وعاش من مكاسبه منه عيشاً رغداً - أقبل إلى المعتمد يواسيه ويخفف عنه، فأسرَّ المعتمد إليه ذات مرة أنه حفر قبره بيده إذ استصرخ المرابطين.

وكان يسعد إذا زاره أخلص أصدقائه ابن اللبانة الداني الشاعر، فأنهى إليه ذات مرة أن عبد الجبار بن المعتمد يحاول إقامة ملك بني عباد من جديد، وأنه استولى على أركش (حصن مجاور لإشبيلية) والجزيرة الخضراء واستقل بهما، فانبعثت الآمال في نفس الأمير الأسير، ولا زالت تهدد خياله؛ حتى وافته المنية في سنة ١٠٩١/٤٨٤. هذا ولم يوفق عبد الجبار فيما كان ساعياً فيه، وتلاشى أمره بعد قليل<sup>(١٣٨)</sup>.

وقد نظم المعتمد أبياتاً أوصى بأن تكتب على قبره، وشبه نفسه فيها «بجبل يتهدى فوق أعواده» - ناظراً في ذلك إلى معنى ضمئه المتنبي أحد أبياته - وقد ترجمها غرسية غومس إلى شعر إسباني:

حَصًّا ظَفَرْتِ بِأَسْلاءِ ابْنِ عِبَادِ  
بِالْحَصْبِ إِنْ أَجْدَبُوا بِالرِّيِّ لِلصَّادِي  
بِالمَوْتِ أَحْمَرُ بِالضَّرْعِ العَادِي  
بِالبَيْرِ فِي ظُلْمِ الصَّنَدْرِ فِي العَنَادِي

هَبْرَ الغَرِيبِ سَقَاكَ الرَّاغِبُ العَادِي  
بِالحِلْمِ بِالعِلْمِ بِالسُّعْمَى إِذِ انصَلَّتْ  
بِالطَّاعِنِ الضَّارِبِ الرَّامِي إِذَا اقْتَلَوْا  
بِالدُّهْرِ فِي نَقْمِ البَعْرِ فِي نَقْمِ

نعم، هو الحق، حاباتي به قدّر  
 ولم أكن قبل ذلك النمشي أعلمه  
 كفاك فارق بما استودعت من كرم  
 يبكي أخاك الذي غيبت وأبلسه  
 حتى يجودك دمع الطل منهمراً  
 ولا تزال صلاة الله دائمة  
 من السماء فواهاني لميعاد  
 أن الجبال تهادي فوق أعواد  
 رَوَاك كُلُّ قَطُوبِ الْبِرْقِ رَعَاد  
 تحت الصفيح بدمع رائح غادي  
 من أعين الزهر لم تبخل بإسعاد  
 على دفينك لا تُحصى بتعداد<sup>(١٣٨)</sup>

ف ٣٠- شهرة الملك الشاعر

ووري المعتمد في لحدته في أغمات، وظل قبره دهرًا طويلًا مزارًا للكثيرين الذين كانوا يقصدونه للترحم عليه في إجلال، وممن زاره ووقف على قبره أبو بحر عبد الصمد شاعره، ولسان الدين بن الخطيب<sup>(١٤٠)</sup> (انظر ف ٤٥) ويقول ابن الأبار القضاعي: «ورزق من الناس حبًا ورحمة، فهم يبكونه إلى اليوم»<sup>(١٤١)</sup>.

«وفي الواقع أصبح الناس -على مر الأيام- يعودون بالذاكرة إلى المعتمد، فيرون فيه أعظم من ملك الأندلس»، كما يقول دوزي. ومن كلام هذا المستشرق الهولندي في حق المعتمد: «أن أخبار كرمه ونجدته، وروح الفروسية التي ما زجت نفسه، حبته إلى قلوب المثقفين من أهل الأجيال التي جاءت بعده.

وكانت محنته العظيمة تثير شجون ذوي الحس المرهف من الناس، أما عامتهم فكانوا مولعين بأخبار مغامراته وفروسيته؛ حتى بدو العرب كانوا يذكرونه بإعجاب عظيم، وكانوا بطبعهم أنقد لكلامه وأعرف بما فيه من بديع اللغة من الحضر».

«وذكر أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني -المعروف بابن اللبانة- أن رجلاً من أهل إشبيلية كان يحفظ هذا الشعر (شعر المعتمد) في ذلك الأمد، ثم خرج منها لنية منه إلى أقصى حي في العرب، فأوى إلى خيمة من

حياتهم، ولاذ بدمة راع من رعاتهم. فلما توسط القمر في بعض الليالي، وهجع السامر، تذكر الدولة العبادية وروثها، فطفق ينشد القصيدة بأحسن صوت وأشجاء، فما أكملها حتى رفع رواق الخيمة التي أوى إليها رجل عن وجه وسيم ضخم تدل سيما فضله على أنه سيد أهله فقال: «يا حضري، حياك الله. لمن هذا الكلام الذي اعذوذب مورده، وافضوضل منبته، وتحلت بقلادة الحلاوة بكره، وهدر بشقشقة الجزالة بكره؟» فقال: «هو الملك من ملوك الأندلس يعرف بابن عباد» فقال العربي: «أظن هذا الملك لم يكن له من الملك إلا حظ سير، ونصيب حقير. فمثل هذا الشعر لا يقوله من شغل بشيء دونه»، فعرفه الرجل بعظم رياسته، ووصف له بعض جلالته. فتعجب العربي من ذلك ثم قال: «وممن الملك، إن كنت تعلم؟» فقال الرجل: «هو في الصميم من لحم، والذؤابة من يعرب».

فصرخ العربي صرخة أيقظ الحي بها من هجعتة. ثم قال: «هلموا، هلموا» فتبادر القوم إليه ينثالون عليه، فقال: «معشر قومي، اسمعوا ما سمعته، واعوا ما وعيته، فإنه لفخر طلبكم، وشرف تلاصق بكم. يا حضري، أنشد كلمة ابن عمنا، فأنشدهم القصيدة. وعرفهم العربي بما عرفه الرجل به من نسب المعتمد، فغامرتهم السراء، وداخلتهم العزة، وركبوا من طريهم متون الخيل، وجعلوا يتلاعبون عليها باقي الليل، فلما أرسل الليل نسيمه، وشق الصباح أوكاد أديمه، عمد زعيم القوم إلى عشرين من الإبل فدفعها إلى الرجل، وفعل الجميع مثلما فعل، فما كان رآد الضحى إلى وعنده هنيذة من الإبل. ثم خلطوه بأنفسهم، وجعلوه مقر سرورهم وتأنسهم»<sup>(١٤٢)</sup>.

وقد ختم دوزي كلامه عن المعتمد بن عباد بقوله: «هذا، ولم يكن المعتمد قط حاكمها عظيمًا بحال، فقد تولى مقاليد شعب أفسد طبعه الترف، فلم يصرف شيئًا من العناية إلى أمور رعيته. وترامى على ملذات نفسه، ومن ثم كان عبء

الحكم عليه ثقيلاً. ثم إنه كان ميّالاً إلى الراحة بطبعه، وكانت تشغله تلك الأشياء التي تشغل الفنانين وتتألف منها مسراتهم وشقاواتهم، فكان ذلك مما حال بينه وبين القيام بأعباء الحكم على وجه المطلوب.

ولكن أحداً من الناس لم تضم نفسه هذا القدر من الحساسية، أو هذا الفيض الشعري الدافق الذي ضمته نفس المعتمد؛ ثم إن القدر أراد له أن يكون آخر أمير أندلسي الأصل، يحمل في جلال علم ثقافة فكرية وقومية، قدّر لها أن تنطوي ويذهب أمرها تحت ظل المرابطين الذين فتحوا البلاد،<sup>(١٤٣)</sup> (انظر المقدمة ص ٢٢-٢٤\*).

(\*) يقصد مقدمة الطبعة الأولى

## (ج) غرناطة

٣١- أبو الفتح الجرجاني، وأبو إسحاق الإلبيري

لم يتقدم الأدب العربي تقدماً محسوساً في غرناطة التي سيطرت عليها الطوائف البربرية، وأهم شخصية تستلفت الاهتمام فيها هو اليهودي ابن النغدة، الذي كان يولف بالعبرية واجتهد في النهوض بالدراسات التلمودية. وفي ذلك العصر أقبل إلى غرناطة أبو الفتح الجرجاني، وهو مفاخر مشرقي نزل الأندلس في سنة ١٠١٥/٤٠٦. وكان فيلسوفاً فلكياً يقول الشعر بين الحين والحين.

أقام الجرجاني حيناً عند مجاهد الصقلبي صاحب دانية، ثم قصد سرقسطة؛ حيث أقام في كنف المنذر بن هود ردحاً من الزمن؛ واستقر به النوى آخر الأمر في غرناطة؛ حيث ألقى دروساً عن الشعر القديم وكتاب «الحماسة» خاصة. وقد اتهم في مؤامرة دبرت على باديس بن حبوس صاحب غرناطة، فقبض عليه وحبسه ثم قتله سنة ١٠٣٠/٤٢١ وأمر بدفنه إلى جانب أحمد بن عباس<sup>(١٤٤)</sup>.

وقد خلف إسماعيل (صمويل)<sup>(١٤٥)</sup> بن النغدة في الوزارة لبني زيدي بن حبوس ابنه يوسف، ولم تكن له كياسة أبيه في مصانعة المسلمين، فاستثار سخطهم عليه. وكان المتكلم بلسانهم في هذه الخصومة أبو إسحاق الإلبيري الفقيه العربي، وكان مغيظاً؛ لأنه لم يدرك في بلاط غرناطة المركز الذي كان يرى نفسه أهلاً له، وزاد في حنقه أن يوسف بن النغدة أمر بنفيه من غرناطة، فانصرف إلى النسك والزهادة، ونظم في معتكفة قصيدة يهجو يوسف بن النغدة، ويؤلب المسلمين وياديس بن حبوس على اليهود، قال فيها:

وَلَا تُرْفَعُ الضُّفْطُ عَنْ رَهْطِهِ	فَقَدْ كَانُوا كُلُّ عِلْقٍ لَمِينِ
وَقَرَّقَ عِدَاهُمْ وَخَذَ مَا لَهُمْ	فَأَنْتَ أَحَقُّ بِمَا يَجْمَعُونَ
وَلَا تُحْسَبُ بَيْنَ قَتْلِهِمْ غَدْرَةٌ	بَلِ الْقَدْرُ فِي أَرْصِهِمْ يَعْثُونَ

وَقَدْ نَكَّثُوا عَهْدَنَا عِنْدَهُمْ      فَكَيْفَ نَلَامُ عَلَى النَّاكِثِينَ  
وَكَيْفَ نَكُونُ لَهُمْ ذِمَّةً      وَنَحْنُ خُمُولٌ وَهُمْ ظَاهِرُونَ<sup>(١٤٦)</sup>

فالتهمت عواطف الناس سخطاً على اليهود، وتواثبوا بهم، فنهبوا ديارهم وقتلوا من ظفروا به منهم. وكان ابن النفلة ممن لقي مصرعه في هذه المذبحة (٤٥٩/ ١٠٦٦).

وقد حفظ لنا المقري أشعاراً أخرى لأبي إسحاق الإلبيري، تتجلى فيها حكمته وعاطفته الدينية، وترجم له دوزي (إلى الفرنسية) مقتطفات كثيرة من شعره نورد منها:

وذي غنى أو مئته همته      أن الفنى عنه غير منفصل  
يجر أذيال عجبه بطرا      واختال للكبراء في الحلل  
بزته أيدي الخطوب بزته      فاعتاض بعد الجديد بالسهل  
فلا تثق بالفنى فافته الـ      فمروصرف الزمان ذو دول  
كفى بنيل الكفاف عنه غنى      فكن به الدهر غير محتل<sup>(١٤٧)</sup>

وقد زاره وهو على فراش الموت أحد وزراء غرناطة، فرأى ضيق مسكنه فقال له: «لو اتخذت غير هذا المسكن لكان أولى بك» فقال، وهو آخر شعر له:

قالوا: ألا تسجد بيئنا      تعجب من حسنه البيوت؟  
فقلت: ما ذلكم صواباً      عش كثير من يموت  
لولا شتاء ولقح قبيظ      وخوف لمن وحفظ قوت  
ونسوة يبعين سترنا      بنيت بنيان عنك بيوت<sup>(١٤٨)</sup>

أما بقية دول البربر التي قامت في ذلك الحين - في مالقة والجزيرة الخضراء وقرمونة واستجة والمدور ورندة وأركش ومورور وشريش - فلم تنفق للأدب فيها سوق، ثم انتهى بها الأمر إلى الدخول في حوزة أصحاب إشبيلية.

## (د) المريّة

ف٣٢- الوزير أحمد بن عباس

استقل بالمريّة أول انتشار الجماعة خيران الصقلبي، ثم خلفه على إمارتها زهير، وكان صقلبيّاً أيضاً. وقد تولى الوزارة له أحمد بن عباس وكان مخلصاً لابن النفدلة - وزير بني زيري أصحاب غرناطة - لا تسكن العداوة بينهما. «وقد بذ الناس في وقته في أربعة أشياء: المال، والبخل، والعجب، والكتابة»<sup>(١٤٨)</sup> وكان «جماعاً للدفاتر حتى بلغت أربعمئة ألف مجلد، وأما الدفاتر المخرومة فلم يوقف على عددها لكثرتها»<sup>(١٥٠)</sup> ولكن غروره وصل به إلى حد الجنون، وهو القائل:

لي نفس لا ترتضى الدهر عمراً	وجميع الأنام طراً عبداً
لو ترقّت فوق السماء محلاً	لم تنزل تبثني هناك صموداً
أنا من تعلمون شيدت مجدي	في مكاني ما بين قومي وليداً

وقال أيضاً:

عيون الحوادث عني نيام  
وهضمي على الدهر شيء حرام  
وذاع هذا البيت في الناس واستكروه، حتى قلب بعض الأدباء مصراعه الأخير فقال:

سبوقظها قدر لا ينام<sup>(١٥١)</sup>

وقد تحققت أمنية هذا الشاعر، إذ وقع ابن عباس أسيراً بيد خصمه اللدود باديس بن حبوس صاحب غرناطة قتلته بيده في ٢٧ ذي القعدة ٤٢٧/٣٥١ (١٥٢).

ف٣٣- المعتصم بن صمادح صاحب المريّة وشعراء بلاطه

أما في المريّة - حيث استبد بالأمر المعتصم بن معن بن صمادح وآله، وهم فرع من الثجيبين أصحاب سرقة - فقد علا أمر الآداب والعلوم في هذه الدويلة، في

عهد محمد بن معن الملقب بالمتصم (١٠٥١/٤٤٣-١٠٩١/٤٨٤)، على الرغم من أن حدودها قد انكسرت في أيامه حتى صارت أضحوكة في أفواه أهل الأدب. وكان المتصم نفسه مسلماً لين الجانب محبباً إلى القلوب، راعياً للأداب والعلوم موقراً للدين وأهله، باراً بوزارته، صفوحاً عن الهفوات، عادلاً في أحكامه، وقد أحاط نفسه بهالة من الشعراء أضفوا على دولته رونقاً جميلاً<sup>(١٥٣)</sup>.

ومن أولئك الشعراء أبو الفضل جعفر بن أبي عبد الله محمد بن شرف البرجي<sup>(١٥٤)</sup> «الحكيم الفيلسوف» (١٠٥٢/٤٤٤-١١٣٩/٥٣٤)، وكان رجلاً واسع العلم استطاع أن يصل في بلاط المرية إلى مكان مرموق. وكان قد قصد أول أمره قصر محمد بن معن بن صمادح في زي تظهر عليه البداوة، وألقى بين يديه قصيدة مطلعها.

مطل الليل بوعد الفلق	وتشكى النجم طول الأرق
ضريت ربح الصبا مسك الدجى	فاستقاد الروض طيب العبق
والاح الفجر خجلاً	جال من رشح الندى في عرق
جاوز الليل إلى أنجمه	فتساقطن سقوط السورق <sup>(١٥٥)</sup>

فاسترعى انتباه المتصم وأهل المجلس فأقبلوا عليه، وكان ذلك أول صعود أمره.

وقد حسده بقية الشعراء لانفراده بالمكان الأخطى من نفس المتصم، وكان من بين أولئك الحاسدين أبو عبد الله محمد بن معمر المالكي المعروف بابن أخت غانم<sup>(١٥٦)</sup> - وغانم خاله المنسوب إليه هو الإمام العالم أبو محمد غانم المخزومي، النحوي المشهور - وكان عارفاً بالكثير من كتب النحو والفقه والشريعة والطب، وكان يقول الشعر في يسر، وكانت له حافظة نادرة؛ ففاظله أن يبلغ البرجي هذه المكاتة في ذلك الوسط الرفيع، وهو البسيط الأصل والمنبت<sup>(١٥٧)</sup>.

وقد جرت بين الشاعرين لهذا نقائض فيأضه بالسخر البارع الملاذع.

وتتواتر في كتب الأدب قصة عن المعتصم بن صمادح، تدل على عظيم تقديره للشعر وأهله؛ فقد وفد عليه البرجي مرة يشكو عاملاً ناقشه في قرية يحرث فيها، وأنشده الرائية التي مطلعها:

قامت تجرد ذبول العصب والحبر ضيفة الخصر والميثاق والنظر  
إلى أن بلغ قوله:

لم يبق للجور في أيامهم أثر إلا الذي في عيون الفيد من حور  
فقال له المعتصم: «كم في القرية التي تحرث فيها؟»، فقال: «فيها نحو خمسون بيتاً»، فقال له: «أنا أسوِّغك جميعها لهذا البيت الواحد»؛ ثم وقَّع له بها وعزل عنها نظر كل وال<sup>(١٥٨)</sup>.

وقد ألف ابن شرف مجموعين من الأمثال والحكم: أحدهما شعراً والآخر نثراً<sup>(١٥٩)</sup>، وقد حوياً بين دفتيهما ما يشهد بسعة الاطلاع. ومن روائع حكمه:

- لتكن بقليلك أغبط منك بكثير غيرك، فإن الحي برجليه - وهما ثتان -  
أقوى من الميت على أقدام الحمله، وهي ثمان.

- رب سامح بالعطاء علي باخل بالقبول<sup>(١٦٠)</sup>.

وممن اتصل بالمعتصم من شعراء ذلك العصر ابن الحداد الوادي آشي المتوفى عام ١٠٨٧/٤٨٠، وقد علت رتبته عنده حتى أسند إليه الوزارة وأحظاه. وقد هوى ابن الحداد صبية نصرانية كنى عن اسمها بنويرة - أو نويرية - وقال فيها شعراً ينم عن عاطفة مشبوية. وكانت تتنابه بين الحين والحين حالات من اليأس والتشاؤم، فيتحدث عن الزهد واعتزال الدنيا وأهلها، ومن ذلك قوله وقد تغير قلب المعتصم عليه واضطر إلى اللحاق بتغر بني هود.

لزمتم قناعتي وقعدت عنهم  
فلمست أرى الوزير ولا الأميرا  
وكنتم سمير أشعاري سفاهاً  
فعدت نلستفياتي سميراً<sup>(١٦١)</sup>  
أو قوله:

سامح أخاك إذا أتاك بزلّة  
فغلاوص شيء قلما يستمكن  
في كل شيء آفة موجودة  
إن السراج - على سناه - يدخن<sup>(١٦٢)</sup>

وقد غضب عليه المعتصم وأقصاه؛ لأنه - أي الشاعر - رماه بالبخل. ولم يكن المعتصم بالبخل، إنما كان الكرم شيمته الحسنی<sup>(١٦٣)</sup>، كما تشهد بذلك قصائد شعرائه من أمثال عمر بن عبد الشهيد وأبي جعفر بن القراز والنحلي وابن بليطة وغيرهم<sup>(١٦٤)</sup>.

ولجأ إلى المعتصم كذلك نفر من شعراء غرناطة، لم يطبقوا العيش في ظل أمرائها من البربر الذين لم يزدانوا بعلم يوطئ لأهل الأدب أكتافهم. ومن أولئك ابن أخت غانم - الذي ألمنا بذكره - وأبو القاسم خلف بن فرج الإليبري المعروف بالسميسر، وكان «يانعة عصره وأعجوبة دهره» - كما يقول ابن بسّام، وله أشعار لها فيها أمراء عصره وأقذع في هجوهم، كقوله:

نار الملوك وقل لهم: ماذا الذي أحدثتم؟  
أسلمتم الإسلام في أسر العدا وقعدتم!  
وجيب القيام عليكم إذ بالنصاري قعدتم  
لا تنكروا شوق العصا فقصبا النبي شققتم

وقد أُلّف كتاباً سماه «شفاء الأمراض في انتهاك الأعراض»، تناول فيه ما كان يدعيه أهل عصره من خصال لم تكن فيهم، ووضعهم موضعهم الصحيح<sup>(١٦٥)</sup>.

وفي بلاط بني صمادح هؤلاء عاش أبو عبيد البكري الجفرا في المعروف، وسيرد الكلام عنه مع الجغرافيين (ق ٩٥)؛ وكان شاعراً فذاً روي له شعر كثير

وخمريات تتحدث عن ميل إلى لذات العيش:

خليلي، اني قد طرقت إلى الكاس  
فقوموا بنا نلهو ونستمع الفنا  
فليس علينا في التعلل ساعة  
وتقت إلى شم البنفسج والأس  
ونسرق هذا اليوم سرًا من الناس  
وإن وقعت في عقب شعبان من باس<sup>(١٦٦)</sup>

### فصـ ٣٤- آل المعتصم

وكان بنو المعتصم شعراء مبرزين، ومنهم أبو جعفر الذي خاطب محبوبته  
بأبيات تفيض رقة وعدوبة:

كثبتُ وقلبي ذو اشتياق ووحشز  
جملتُ سواد العين فيه سواده  
فخُيّل لي أني أقبل موضماً  
ولو أنه يسطيع مرئُيُسلم  
وأبيضه طرساً وأقبلتُ الثم  
يصفحه ذاك البنان المسلم<sup>(١٦٧)</sup>

وكانت أم الكرام بنت المعتصم تقول الشعر كذلك، وكان بها هوى فتى من  
أهل دانية يسمى سَمَار، وقد قالت فيه:

يا معشر الناس ألا فاعجبوا  
لسواه لم ينزل بيدر الدجى  
حسبي بمن أهواه لو أنه  
مما جنته لوعة الحب  
من أفتقه العوى للرب  
فأرقني تابعه قلبي<sup>(١٦٨)</sup>

وعندما انقلب ملوك الطوائف على يوسف بن تاشفين، ومضوا يدبرون عليه،  
كان المعتصم من أكثرهم سعيًا في ذلك التدبير. فلما استولى يوسف على غرناطة  
واستنزل صاحبها الأمير عبد الله، ملك الخوف المعتصم، وسعى في كسب ود أمير  
المسلمين، وكان يكيد له بالأمس! فعجّل بإرسال ابنه عبید الله يهنئه بحصول  
غرناطة في يده، فقبض يوسف على عبید الله وحبسه؛ فقال الفتى يشكو عناءه  
وضيق المحبس:

أبعد العسنى والمعالي خمبول  
وعمد ركوب المذاكي كُبول

ومن بعد ما كنت حراً عزيزاً      أنا اليوم عبد أسير ذليل  
 حاللت رسولاً بفـرناطة      فحل بها بي خطب جليل  
 وثققت إذ جئتها مرسلًا      وقد كان يكرم قبلي الرسول  
 فقدت المرية أكرم بها      فما للوصول إليها سبيل<sup>(١٦٩)</sup>

وجدَّ المعتصم في خلاص ابنه، فلم يسعفه به يوسف بن تاشفين إلا وهو - أي المعتصم - على فراش الموت. وقد طال مرضه، وحاصر المرابطون قصبه المرية - والرجل في فراش المرض - فقال: «لا إله إلا الله، نَعَصَ علينا كل شيء حتى الموت!»<sup>(١٧٠)</sup>. وقد أدركته المنية قبل سقوط المرية في يد المرابطين بأشهر قلائل، وإلى جانبه الشاعر ابن عبادة.

وبعد سقوط المرية توجه أبناء المعتصم إلى الغرب، فأما عبيد الله فقد لجأ إلى أحد المرابطين وعاش في كنفه «الأزمة كانت بينهما، إلى أن انقضت مدته بين أس، وكاس»<sup>(١٧١)</sup>. ولجأ «عز الدولة» إلى بجاية؛ حيث قضى بقية عمره في أمن ورضى بما قسمه له القدر. ويذكر الشاعر الإشبيلي ابن اللبانة أنه اجتمع مع عز الدولة هذا في بجاية وقال: «فإني رأيت منه خير من يجتمع به، كأنه لم يخلقه الله إلا للملك والرئاسة وإحياء الفضائل، ونظرت إلى همته تنمُّ من تحت خموله كما ينمُّ فرند السيف وكرمه من تحت صداه، مع حفظه لفنون الأدب والتواريخ، وحسن استماعه وإسماعه، ورقة طباعة ولطافة ذهنه».

وكان يقول الشعر، مفرجاً عن نفسه شاكياً خمول أمره:

لك الحمد، بعد الملك أصبح خاملاً      بأرض اغتارب لا أمر ولا أحلى  
 وقد أصدأت فيها الجذاذة منهلي      كما نسيت ركض الجياد بها  
 فلا مسمعي يصفي لنفمة شاعر      وكفني لا تمتد يوماً إلى بذل<sup>(١٧٢)</sup>

وأشعر بني صمادح جميعاً «رفيع الدولة» كما يقول نقاد العرب<sup>(١٧٣)</sup>، ومن مآثور شعره هذه الأبيات التالية التي وجه بها إلى صديق:

أبا العلاء كثوس الراح منزعة      وللندامى سرور في تعاطيها  
 وللصون تنن فوقها طرياً      وللتحائم سجع في أعاليها  
 فاشرب على النهز من صهباء صافية      فكانها عصرت من خد ساقبها<sup>(١٧٤)</sup>

وقد قضى رفيع الدولة بقية أيامه في المغرب، مثله في ذلك مثل أخويه، متعرضاً  
 لكثير من المهانة<sup>(١٧٥)</sup>.

ولهم ابن أخ شاعر أيضاً، هو «رشيد الدولة» بن عبيد الله، ومن طريف نظمه  
 قوله:

صبراً على نائبات الدهر إن له      يوماً كما فتك الإصباح بالظلم  
 إن كنت تعلم أن الله مقتدر      فثق به تلق روح الله من أمم  
 وقلماً صبر الإنسان محتسباً      إلا وأصبح في فضاضة النعم<sup>(١٧٦)</sup>

وقد دخل في زمار الموحدين، وأصبح من شعرائهم المأجورين. ويقول دوزي: «وإنه  
 لمن عبث الأقدار أن نجد ذلك الأمير المتحدر من صلب ملك كان يرعى جيشاً من  
 الشعراء ويمنحهم الأرزاق، ينتهي به الأمر إلى أن تهبط به المقادير إلى مستوى  
 الشعراء المأجورين الذين يعيشون على أرزاق يتناولونها من سادتهم»<sup>(١٧٧)</sup>.

(هـ) بلنسية ومرسية

ف٣٥- ابن وهبون- ابن لبون- الوقشي

ونذكر من أهل شرق الأندلس أبا محمد عبد الجليل بن وهبون المرسي، الذي تغنى بذكر وقعة الزلاقة (سنة ٤٧٩/١٠٨٦)؛ وكان صاحباً لابن عمّار، فلما توفي قال فيه مرثية طيبة. كان ابن وهبون من فطاحل الشعراء وأهل الأدب، وقد مات قتيلاً على يد بعض جند النصارى وهو في طريقة من لورقة إلى مرسية<sup>(١٧٨)</sup>.

ونذكر كذلك أبا عيسى بن لبون، وكان صاحباً لقلعتي سجونتو ومريبطر، فلما أحس اقتراب السيد القمبيطور من بلاده وتوقع بلاءه، ترك بلاده لابن رزين صاحب «السهلة»<sup>(١٧٩)</sup> ونذكر أيضاً محمد بن علقمة (٤٢٨/١٠٣٦-٥٠٩/١١١٥) من أهل بلنسية وكان شاعراً وناثراً من طبقة عالية، وهو صاحب كتاب «البيان الواضح عن الملم الفادح» الذي قص فيه أخبار بلده بلنسية في أيامه، ووصف ما حاق بها من البلاء على يد السيد القمبيطور<sup>(١٨٠)</sup>.

وبينما كان «السيد» محاصراً لسرقسطة (سنة ٤٨٧/١٠٩٤)، قام الفقيه هشام بن أحمد الكناني الملقب بالوقشي -نسبة إلى البلد الذي ولد فيه وهو وقش Huecas من أعمال طليطلة- على أسوار البلد وألقى مرثية مؤثرة بكى فيها مصاب بلنسية أثناء هذا الحصار المروع، ولم نجد أصل هذه المرثية، ولكننا وجدنا صوراً لها مكتوبة بحروف لاتينية فيما وجدنا من نسخ «تاريخ إسبانيا العام»<sup>(١٨٠)</sup>.

وقد كان لهذه القصيدة وقعٌ شديد على قلوب البلنسيين، فصاروا يرددون قول صاحبها:

«إذا مضيت يميناً هلكت بماء الفيضان، وإذا ذهبت يساراً أكلني السبع،  
وإذا مضيت أمامي غرقت في البحر، فإذا التقت خلفي أحرقتني النار»<sup>(١٨٢)</sup>.

وإزاء هذا البلاء المتواتر، ألحَّ أهل بننسية على الوقشي في أن يكلم لهم القاضي أحمد بن جحاف -رئيس البلد إذ ذاك - في الاتصال بالقمبيطور وتسليم البلد له على شروط؛ ففعل، وسلم البلد، وأقيم الوقضي قاضياً له<sup>(١٨٢)</sup>.

هذا، وقد ضاع الأصل العربي لهذه المرثية، ولم يبقَ لنا إلا نصها مكتوباً بحروف لاتينية في «تاريخ إسبانيا العام»، - كما قلنا - وقد درسها خليان ريبيرا وحاول أن يقرأها قراءة عربية، وأثبت أن نصها الذي بين أيدينا إنما هو تحوير لها في اللهجة الأندلسية الدارجة في القرن الخامس عشر الميلادي.

(و) بطليوس

٣٦- المظفر بن الأفتس

بين أيدينا من المعلومات عن إمارة بطليوس أقل مما بين أيدينا عن أي إمارة أخرى من إمارات الطوائف في ذلك العصر. كان أول من استبد بأمرها مولى فارسي الأصل يسمى سابور (توفى في ١٠ شوال ٤١٣ / ٨ نوفمبر ١٠٢٢) وكان رجلاً أميناً قام بأمر دولته ابن مسلمة (٤١٣ / ١٠٢٢ - ٤٣٧ / ١٠٤٥) مؤسس أسرة بني الأفتس (ومعناه بنو القرد)، وأصلهم من يراير مكناسة. وأكبر أمراء هذه الدولة المظفر محمد بن عبد الله بن الأفتس (٤٣٧ / ١٠٤٥ - ٤٤٥ / ١٠٦٣) والمتوكل أبو محمد عمر بن محمد بن الأفتس (٤٦٠ / ١٠٦٧ - ٤٨٨ / ١٠٩٥)، وفي عهدها بلغت الإمارة أوجها؛ والأول أخو مسلمة، والثاني ابن أخيه.

وقد ألف المظفر «الكتاب المظفري»، نسبة إلى اسمه. ويقول المقري: «كان المظفر أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع، وله النصف الرائق والتأليف البائق، المترجم «بالتذكرة» والمشتهر اسمه أيضاً «بالكتاب المظفري»، في خمسين مجلداً يشتمل على فنون وعلوم من مغازٍ وسير، ومثل وخبر، وجميع ما يختص به علم الأدب. أبقاه الله للناس خالداً. وتوفى المظفر سنة ٤٦٠ / ١٠٦٧ وكان يحضر العلماء للمذاكرة فيفيد ويستفيد، رحمه الله. وإلى المظفر أهدى عمر بن عبد البر (٣٦٨ / ٩٧٨ - ٤٦٣ / ١٠٧٠) مجموع مختاراته الفريدة المسمى «زينة المجالس» في مجلدات ثلاثة»<sup>(١٨٤)</sup>.

أما عمر المتوكل بن الأفتس -الذي كان أول من عمل على الاستجداد بالمرابطين- فهو الذي أهدى إليه ابن عبدون قصيدته المشهورة<sup>(١٨٥)</sup>.

عاش أبو محمد عبد المجيد بن عبدون في بلاط المتوكل بن الأفسس في بطليوس وكان من أكبر شخصيات هذه الدولة، وأصله من «يابرة» ثم قدم على المتوكل، وحظى عنده وصار له صاحباً ورفيقاً، وأقامه كاتباً له في سنة ٤٧٣ / ١٠٨٠ وتحكي الفرائب عن كثرة حفظه؛ حتى قال في شأنه أبو مروان عبد الملك بن زهر: «هذا أديب الأندلس وإمامها وسيدها في علم الآداب. هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون: أيسر محفوظاته كتاب الأغاني، وما حفظه في ذكاء خاطره وجودة قريحته»<sup>(١٨٦)</sup>. وكانت محفوظاته بعض أدواته، فقد كان ذا فهم دقيق ومزاج مرهف، ومواهب ممتازة ركبها الله في طبعه.

وعند ما طويت صفحة الدولة الأفسسية في ١٠٩٤/٤٨٧ بوفاة المتوكل، قال ابن عبدون درة شعره «القصيدة العبدونية» التي أذاعت صيته في العالم الإسلامي كله على نحو لم يسمع به قبل ذلك. ويقول عبد الواحد المراكشي في وصفها إنها: «قصيدته الغرا، لا بل عقيلته العذرا، التي أزرّت على الشعر، وزادت على السحر، وفعلت في الألباب فعل الخمر، فجلّت عن أن تُسامى، وأنفت من أن تضاهى، فقل لها النظير، وكثر إليها المشير، وتساوى في تفضيلها وتقديمها بأقل وجريء...»<sup>(١٨٧)</sup>.

وقد ترجمها إلى الفرنسية فانيان، وعنه نقل يونس بو يجيس مقتطفات منها إلى الإسبانية، ومطلعها:

فما البكاء على الأشباح والصور؟

الدهر يجمع بعد العين بالأثر

واليك أبياتاً منها:

مِنَ اللَّيَالِي وَخَانَتَهَا يَدُ الْغَيْرِ  
مِثْلًا جِرَاحٍ وَإِنْ زَاغَتْ عَنِ النَّظْرِ  
وَكَانَ عَضْبًا عَلَى الْأَمَلِكِ ذَا الثَّرِ

مَا لِلْيَالِي أَقَالَ اللَّهُ عَثْرَكُنَا  
فِي كُلِّ حِينٍ لَهَا فِي كُلِّ جَارِحَةٍ  
هُوتَ بِـ (داراً) وَقَلْتُ غَرِبَ قَاتِلُهُ

وَاسْتَرْجَعَتْ مِنْ «بَنِي سَاسَانَ» مَا وَهَبَتْ      وَكَمْ تُدْعُ لِبَنِي يُونَانَ مِنْ أُكْرٍ  
وَأَلْحَقَتْ أُخْتَهَا طَسَمًا وَعَادَ عَلَى      عَامَ وَجُرْهُمُ مِنْهَا نَاقِضَ الْمِرْرِ<sup>(١٨٨)</sup>

ثم مضى يذكر الدول والأسر، والرجال الذين عدت عليهم صروف الدهر؛ حتى وصل إلى بني الأفتس - ومن أجلهم نظم قصيدته تلك يندب ما جرته عليهم يد الحدثان<sup>(١٨٩)</sup>.

وتنم أبيات هذه القصيدة عن علم واسع واطلاع متبحر، (ولم يسبقه إلى مثلها من نوعها إلا ابن زيدون في قصيدته إلى ابن عبدوس). وقد كانت غزارة مادتها دافعة بالكثيذين إلى وضع المؤلفات في شرحها والتعليق عليها، وأكبر هذه الشروح وأذيعها «شرح ابن بدرون».

وقد درس دوزي هذا الشرح ونشره، ويرى هذا المستشرق الكبير أن المدائح الطنانة التي أسبقها على هذه «القصيدة» علماء فطاحل - من أمثال ابن خاقان وابن الخطيب - مبالغ فيها كل المبالغة، ولا تتفق مع حقيقتها. وقال: «إننا نجد في هذه المرثية» - إلى جانب بعض أبياتها ذات المعاني المبتكرة الموفقة - نجد براعة عظيمة، وإن التبهر في العلم ليتجلى فيها على نحو يفيض فيضاً؛ ذلك أن ابن عبدون لم يقنع بأن يجعل قصيدته مجرد صرخة محزون يعبر عن لوعته الصادقة العميقة، في أبيات ذات جرس جميل، وإنما مضى يعرض كبار الرجال الذين أحنى عليهم الدهر، وعظام الدول التي عصفت بها يد الحدثان، ويقدم لنا ثبناً منظوماً بمصائب الدهر - من أيام دارا ملك الفرس إلى بني الأفتس أصحاب بطليوس - في أسلوب صحيح يخالطه تأنق بين الحين والحين.

وهو يجهد القارئ ويبعث إلى نفسه الملل بما يلجأ إليه من اللعب بالألفاظ وما يستعمله من الأخييلة عسيرة التصور. إننا لا نجد أنفسنا أمام قصيدة تثير كوامن المشاعر، وإنما حيال عرض موفوق لعلم واسع مثقل بالزخارف والزينة<sup>(١٩٠)</sup> وعلّة ذلك

أن ابن عبدون لم يألم ألباً صادقاً لما حل ببني الأطفس، ومصداق ذلك أنه دخل بعد ذلك في خدمة الأمير اللتوني سير بن أبي بكر، وعاش في ظلال المرابطين إلى آخر حياته، (توفى سنة ٥٢٩/١١٣٤). والبون شاسع بين هذا الحزن الفاتر المصطنع، وبين العواطف الصادقة المؤثرة التي تتجلى في قصائد المعتمد بن عباد الأخيرة.

وقد خلف لنا ابن عبدون أشعاراً وآثاراً أخرى، كالرسالة التي كتبها عن لسان سير بن أبي بكر تاشفين إلى علي بن يوسف بن تاشفين «يخبر فيها بفتح مدينة شنترين»<sup>(١٩١)</sup> ورسالته التي وجه بها إلى أبي عبد الله محمد بن أبي الخصال «يخطب مودته ويستدعي من إخائه جدته»<sup>(١٩٢)</sup> وغيرهما كثير. وقد وصف دوزي شعره في هذه الآثار بأنه: «زهو لدنة رقيقة ينبعث منها عطر جميل... وأشعار متناسقة فياضة بالتوفيق والجمال»<sup>(١٩٣)</sup>.

وممن كتب للمتوكل بن الأطفس - وليوسف بن تاشفين من بعده كذلك - أبو بكر عبد العزيز بن القبطورية، وقد روى له صاحب القلائد تلك الأبيات الحسان التي بعث بها إلى الوزير أبي الحسن بن سراج:

يا سيدي، وأبي: هدى وجلالاً	ورسولٍ ودي إن طلبت رسولا
عرج بقرطبية إذا بلغتها	بأبي الحسين، وناده تمويلا
فإذا سمعت بمنظرة من وجهه	فأهد السلام لكفة تقبيلاً
واذكر له شوقي وشكري مجملاً	ولو استطعت شرحته تفصيلاً
بتحية تهدي إليه كأنما	جرت على زهر الرياض ذويلاً <sup>(١٩٤)</sup>

ومنهم كذلك أخوه أبو الحسن بن سعيد بن القبطورية، وقد أنشد له صاحب

«القلائد»:

ذكرت سُليمي وجرُّ الوغي	كجسمي ساعة فارقتها
وأبصرتُ بين القنا قدما	وقد ملنَّ نحوِي، فعانتها <sup>(١٩٥)</sup>

وفي بلاط بني الأفطس كذلك عاش أبو محمد عبد الله بن سارة (توفي ٥١٧ / ١١٢٣)، وله مقطعات بديعة في موضوعات صغيرة - كالباذنجان والسفرجل والنارنج - ومن ذلك قوله في هذا الأخير:

أرى شجر النارنج أبدى لنا جنى      كقطر دموع ضرجتها اللواعج  
كرات عقيق في غصون زبرجد      بكف نسيم الريح منها صواعج  
تقبلها طوراً وطوراً نشمها      ههن حدود بيننا ونوافج<sup>(١٧٧)</sup>

ومنهم كذلك أبو عبد الله بن البين؛ قال صاحب الذخيرة: اجتمع مع ابن سارة، فقال له ابن سارة: أجز:

هذي البسيطة كاعب أبرادها      حلل الربيع وحليها الأزهار  
قال ابن البين:

وكان هذا الجو فيها عاشق      قد شفه التمزيب والإضرار  
فإذا شكا فالبرق قلب خافق      وإذا بكى فدموعه الأمطار  
فمن أجل ذلة ذا وعزة هذه      تبكي السماء وييسم النوار<sup>(١٧٨)</sup>

ولنختم كلامنا عن شعراء غرب الأندلس بذكر عبد الرحمن بن مقاننا الأشبوني، صاحب المديح الذائع في إدريس بن يحيى بن علي بن حمود صاحب مالقة الذي يقول فيه:

قد بدا لي وضخ الصبح المبين      فاستنيتها قبل تكبير الأذنين  
نثر المنج على مفرقها      درراً عامت، فعادت كالبرين  
مع فتيان كرام نجسي      يتهادون رياحين المجون  
شربوا الراح على خدر شا      ورد الورد به والياسمين  
وجأت آياته عسامة      سيج الشعر على عاج الجبين  
فانثني غصناً على عصن نقا      وبدا ليل على صبح مبين<sup>(١٧٩)</sup>

## (ز) سرقسطة

٣٨- ابن باجة

لدينا من أخبار بني هود في سرقسطة طائفة طيبة عن العلوم في دولتهم (انظر ف١٣٢)، أما أخبار الشعر والشعراء في بلاطهم فقليلة، باستثناء رجل مثل اليهودي أبي الفضل حسداي وزير المؤتمن بن هود، وكان له اهتمام كبير بالعلوم والطب والشعر والموسيقى.

وسندع - إلى حين - ابن جبيرول Avicbro'n وكان شاعراً فيلسوفاً يهودياً، لجأ فترة من الوقت إلى بلاط سرقسطة، ونجتزئ هنا بذكر يحيى الجزار، وأبي بكر محمد بن باجة التجيبي المعروف بأبن الصائغ، وهو فيلسوف ممتاز (انظر ١٠٦) وموسيقى جليل ومؤلف موشحات وآثار شعرية أخرى. ومما يؤكّر عنه أن الموت عدا على صاحب له فقضى ليلة كاملة عند قبره، وكان يعلم - لمعرفته بالفلك - أن القمر سيُخسف تلك الليلة، فنظم بضعة أبيات، وقبل أن يحين موعد استتار القمر بلحظات أنشدها بلحن محزن يفيض شجواً ولما حضرته الوفاة كان ينشد:

أقول لنفسي حين قابلها الردى      فراغت فراراً منه يُسرّى إلى يمئى؛  
قرى، تحلمي بمرض الذي تكرهينه      فقد طالما اعتدت الفرار إلى الأهنى<sup>(٢٠٠)</sup>

## عصر المرابطين

ابن خفاجة الشقري- ابن الزقاق- أبو الصلت أمية الداني

٣٩٥

يعتبر عصره سيادة المرابطين على الأندلس عصر تأخر وانكماش للثقافة الأندلسية، فقد كان يوسف بن تاشفين - أول أمراء هذه الدولة - لا يكاد يفقه العربية، أما خلفاؤه «فلم تلبث الثقافة الأندلسية أن غلبتهم على أمرهم، فأصبحوا أقرب إلى الأندلسيين منهم إلى الأفارقة» كما يقول غرسية غومس: وتولى الكتابة عنهم نفر من أهل الأدب الأندلسيين، من أمثال ابن عبدون، وبنو القبطورنة، وابن أبي الخصال (المتوفى عام ١١٤٥/٥٤٠)، والصيرفي (المتوفى عام ١١٧٤/٥٧٠).

ومن أعلام من ظهر في ذلك العصر ابن خفاجة وابن أخته ابن الزقاق.

أما ابن خفاجة الشقري (١٠٥٨/٤٥٠-١١٣٨/٥٢٣) فقد وصفه ابن سعيد بقوله: «شاعر الأندلس في وصف الأزهار والأنهار وما أشبهه»<sup>(٢٠١)</sup> وقد لقبه الناس بالجئان، لكثرة ما وصف الرياض، واليك نموذجاً من شعره:

أشهى وروداً من لمى الحسناء  
والزهري كنفه مجر سماء  
من فضة في بردة خضراء  
هُدبٌ تحف بمقلة زرقاء  
صفراء تخضب أيدي الندماء<sup>(٢٠٢)</sup>

لله نهر سجال في بطحاء  
متعطف مثل السوار كأنه  
قد رق حتى ظن قرصاً مفرغاً  
وغدت تحف به القصور كأنها  
ولطالما عاطيت فيه مدامة  
ومن المشهور المتداول قوله يتغزل:

مدامية الأملى حبابية الثغر  
كما اشتبكت زهر النجوم على  
رداء عناق مزقته يد الفجر<sup>(٢٠٣)</sup>

غزالية الأحاظ ريمية الطلبي  
ترنج في مشية ذهبية  
وقد خلعت ليلاً علينا يد الهوى

ويقول غرسية غومس في «روضيات» ابن خفاجة: «إنها سائفة بديعة، تصدر عن طبع فني لمّاح، فتبدو وكأنها مشاهد خيالية، أو مجالس أنس خميرية؛ ويمكن القول بأنه سبق بها شعراؤنا في وصف الطبيعة على النحو الذي نعرفه وقد كان أثر طريقة ابن خفاجة عظيماً بعيداً، حتى لنلمس آثار هذا «الأسلوب الخفاجي» إلى نهاية أعصر غرناطة».

وأما ابن الزقاق، فالسُرُّ في براعته يرجع إلى تلك الألوان الرقيقة التي يلجأ إليها ليغير من صور التشبيهات التي ملها الناس لكثرة تواردها، «فتلطف لذلك في أن يأتي به أي بالمعنى في منزع يصير خَلْقُهُ في الأسماع جديداً، وكليله في الأفكار جديداً، فأغرب أحسن إغراب، وأغرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل إعراب» - كما يقول الشقندي<sup>(٢٠٤)</sup>.

ويعتبر كلا الشاعرين - ابن خفاجة وابن الزقاق - الذروة العليا للشعر القديم المجدد، مثلهما في ذلك مثل جُنُجْرَهُ في الأدب الإسباني، وليس بعدهما إلا تقليد أو انحدار<sup>(٢٠٥)</sup>.

أما ابن الزقاق (١٠٩٦/٤٩٠ - ١١٣٥/٥٣٠) - ابن أخت ابن خفاجة فله خمريات بديعة، كقوله:

أديراها على الروض المندي	وحكم المصبح في الظلماء ماضي
وكاس السراح تنظر عن حباب	ينوب لنا عن الحدق المراض
وما غربت نجوم الأفق لكن	نقلن من السماء إلى الرياض <sup>(٢٠٦)</sup>

وإلى جانب نثر غفير من الشعراء المحدثين - من أمثال ابن بقی القرطبي (توفي ١١٤٥/٥٤٠) صاحب الغزل الرقيق<sup>(٢٠٧)</sup>، والأعمى التطيلي<sup>(٢٠٨)</sup> (توفي ١١٢٦/٥٢٠) وقد عاش في إشبيلية وعلا أمره فيها - ظهر نثر من الزجالين والوشاحين وأصحاب الشعر الذي لا احتشام ولا عفة فيه، كمنزهون بنت القلاعي تلميذة المغزومي<sup>(٢٠٩)</sup>

التي كانت تعارض أبا بكر بن سعيد الوزير الغرناطي معارضات تتم عن ذكاء، والكتندي<sup>(٢١٠)</sup> الذي أكثر من التفتي بجمال الوادي الكبير نهر إشبيلية، وغيره كثيرون ممن سبقوا ابن قزمان إلى أفكاره ومعانيه؛ وسندرسها فيما بعد عند المامنا بأزجاله.

ويمتاز هذا العصر بظاهرة أدبية أخرى جديدة بالذكر، وهي هجرة الكثيرين من أهل العلم والأدب من الأندلسيين إلى المشرق، حاملين معهم علومهم وثقافتهم؛ ومن أمثلة ذلك: أبو الوليد الطرطوشي (ف٥٦)، وأبو الصلت أمية الداني (٤٦٠ / ١٠٦٧-١١٦٥/٥٦١)<sup>(٢١١)</sup> الذي خرج إلى المشرق وتجلت مواهبه الأدبية في الإسكندرية ومصر وتونس، ومن أمثلة شعره قوله في مجمرة طيب:-

ومحرورة الأحشاء لم تدر ما النوى	ولم تدر ما يلقى المحب من الوجد
إذا ما بدا برق المدام رأيتها	تثير غماماً في الندي من السند
ولم أر نياراً كلما شب جمرها	رأيت الندامى منه في جنة الخلد <sup>(٢١٢)</sup>

ولأبي الصلت مجموع من مختارات شعر الأندلسيين ضاهى به «يتيمة الدهر» للثعالبي، وله «الرسالة المصرية» ومؤلفات أخرى كثيرة في الطب والفلك والموسيقى والهندسة والمنطق (ف١٠٤).

بيد أن الاهتمام الأكبر اتجه في هذا العصر إلى مجموعات مختارات النظم والنثر، كما نرى في «ذخيرة» ابن بسام (ف٩٠) و«قلائد العقيان» لابن خاقان (ف٩١).

## د عصر الموحدين

أبو جعفر بن سعيد - وحفصة الركونية - حمدة بنت زياد المودب - ابن زهر -  
ابن صفر - ابن سهل - صفوان بن إدريس - أبو البقاء الرندي - ابن الأبار - أبو  
الحجاج البيهقي - علي بن سعيد المغربي

٤٠٢

اضحى سلطان المسلمين في شبه الجزيرة اضمحللاً واضحاً خلال عصر  
الموحدين، وخفت في أثنائه قوة الأثر الذي كان للشرق على الأندلس، وتلاشت  
السياسة التقليدية التي عرفها الأندلس الإسلامي طوال تاريخه قبل ذلك، وهي  
سياسة التسامح بين المسلمين والنصارى، وبدأ المستعمرون يتطلعون إلى الوثوب  
بالمسلمين<sup>(٢١٢)</sup>، وزادت أزمتهم حدة مع الزمن، وعندما تواتت انتصارات النصارى على  
مسلمى الأندلس واستولوا منهم على المعقل واحداً بعد واحد، أصبح معتمد  
الأندلسيين على الأمداد المغربية؛ وكانت نتيجة ذلك أن أهل المغرب نظروا إلى  
الأندلسيين نظرة الاستصغار والاستضعاف، وانبرى الأندلسيون ينتصفون لأنفسهم،  
ورسالة أبي الوليد الشقندي<sup>(٢١٤)</sup> إن هي إلا مظهر لهذا المنزع عند الأندلسيين.

وقد مضى الأندلسيون خلال هذا العصر في دراسة الفلسفة والعلوم قُدماً،  
وأنشئوا في ميدان الفن عمائر جليلة ذات خطر، كالمنازة الرائعة التي عرفت فيما  
بعد بالجيرالدا (la Geralda)<sup>(٢١٥)</sup> في إشبيلية، وكذلك استمر الاهتمام بالشعر  
والحماسة له، وكان خلفاء الموحدين إذا أموا بالأندلس جلسوا للشعراء يستمعون  
لأمداحهم وكانت كثيرة جداً؛ حتى لقد حكى صاحب «كتاب روح الشعر ودوح  
الشجر» وهو الكاتب أبو عبد الله محمد بن الجلاب الفهري، أن أمير المؤمنين  
يعقوب المنصور لما قفل من غزاة الأراكمة (الأرك) المشهورة، وكانت يوم الأربعاء ٩  
شعبان سنة ١١٩٤/٥٩١، ووردَ عليه الشعراء من كل قطر يهنئونه، فلم يتمكن

لكثرتهم أن ينشد كل إنسان قصيدته، بل كل يختص منها بالإشاد البيتين والثلاثة المختارة، فدخل أحد الشعراء فأنشده:

ما أنت في أمراء الناس كلهم      إلا كصاحب هذا الدين في الرسل  
أحييت بالسيف دين الهاشمي كما      أحياء جدك عبد المؤمن بن علي

فأمر له بألفي دينار، ولم يصل أحداً غيره لكثرة الشعراء، وأخذاً بالمثل: «منع الجميع أرضي للجميع». قال: «وانتهت رقاغ القصائد وغيرها إلى أن حالت بينه وبين من كان أمامه لكثرتها»<sup>(٢١٦)</sup>.

وممن ظهر أمره من شعراء هذا العصر وعلا نجمه في بلاد الموحدين أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي (المتوفى سنة ١١٦٣/٥٥٩) وهو من تلاميذ ابن خفاجة. وكان يمتاز بخلق سمح جميل وذهن دقيق، وكان يؤثر الدعة والراحة على متاعب الاضطلاع بشئون الدولة، وكان مولعاً بحفصة بنت الحاج الشاعرة الفرناطية ذائعة الصيت الملقبة بالركونية، وهي نسبة أبيها، وكانت تحتل في عصر الموحدين مكانة ولادة في قرطبة بني جهور. وكان ولعه بها سبب موته.

استمتع أبو جعفر وحفصة بهواهما زمناً، وأفصح كل منهما عن مشاعره في شعر كثير. وبعض أبيات حفصة تنم عن روح تهكم فكه لطيف. من ذلك أن أبا جعفر قال الأبيات التالية بعد أن نعم بليلة مع صاحبتة في خميلة بحور مؤمل:

رعى الله لسيلاً لم يُرع بمنم      عشية واراننا بحور مؤمل  
وقد خفقت من نحو نجد أريجة      إذا نفعتُ جاءت بريا القرنفل  
وغرد قمرى على السدوح وانثنى      قضيب من الريحان من فوق جدول  
يرى الروضُ مسروراً بما قد بدا له      عناق وضم وارتشافُ مقبل<sup>(٢١٧)</sup>

فأجابته حفصة بأبيات تدعوه فيها إلى ترك التحليق مع الخيال والهبوط إلى

لعمرك ما سرّ الرياض بوصلنا      ولكنّه أبدى لنا الفلّ والحسد  
ولا صفق النهر ارتياحاً لقرينا      ولا غرد القمرى إلّا لما وجد  
فلا تحمن الظنّ الذي أنت أهله      فما هو في كلّ المواطن بالرشد  
فما خلت هذا الأفق أبدى نجومه      لأمر سوى كيما تكون لنا رصد<sup>(٣١٨)</sup>

ويُنسب إلى الركونية هذان البيتان:

أغار عليك من عيني رقيبى      ومنك ومن زمانك والمكان  
ولن أني خباتك في عيوني      إلى يوم القيامة ما كفاني<sup>(٣١٩)</sup>

ويشاء القدر أن يتعلق بحفصة كذلك ابن للخليفة عبد المؤمن يسمى «أبو سعيد» وكان والياً على غرناطة، وكان أبو جعفر لا يوقره ويجاهر بالزراية به<sup>(٣٢٠)</sup>.

ثم خرج من غرناطة، واشترك في تدبير على الموحدين أحكمه نظر من أصحاب محمد بن مردانيش المنتزى على الموحدين في بلنسية، وكان الإسبان يسمونه بـ «الرّي لوبو» أي «الملك لب». وقد انكشف أمر هذه المؤامرة وأبو جعفر في مالقة بهم بركوب البحر إلى بلنسية، فقبض عليه وأودع السجن ثم قتل سنة ١١٦٣/٥٥٩ وقد زاره في محبسه قبل قتله صديق له، فدمعت عيناه حينما رآه مكبولاً فقال له: «أعليّ تبكي بعدما بلغت من الدنيا أطياب لذاتها، فأكلت صدور الدجاج، وشريت في الزجاج، ولبست الديباج، وتمتعت بالسراري والأزواج، واستعملت من الشمع السراج الوهاج، وركبت كل هملاج؟ وما أنا في يد الحجاج، منتظراً محنة الحلاج، قادم على غافر لا يحتاج، إلى إعدار ولا احتجاج». قال ابن عمه الذي سمع هذه المقالة: «أفلا يوسف على من ينطق بمثل هذا الكلام ويفقد!»<sup>(٣٢١)</sup> وعندما بلغ حفصة<sup>(٣٢٢)</sup> خبر صاحبها لبست الحداد وحزنت عليه حزناً شديداً، وجعلت تتحي على نفسها باللائمة أن كانت سبب هلاك هذا المسكين.

ويغلب أن حمدة بنت زياد المؤدّب عاشت في ذلك العصر، وكانت تلميذة للبراق ولقيت شهرة عظيمة في المشرق خاصة، ومن أبياتها التي طارت كل مطار في الأندلس قولها:

ولما أبى الواشون إلفراقنا      وليس لهم عندي وعندك من نار  
وشنوا على أسمعنا كل غارة      وقُلت حُماتي عند ذلك وأنصاري  
غزوتهم من ناظريك وأدمعي      ومن نفسي بالسيف والسيل والنار<sup>(٢٣٣)</sup>

وتنسب هذه الأبيات في بعض الأحيان لأختها زينب.

ف٤١- أبو بكر محمد بن زهر (١١١٣/٥٠٧-١١٩٩/٥٩٦)

من سلالة دوحة بني زُهر التي أنجبت نقرأ من مشاهير الأطباء. برع أبو بكر في نظم الموشحات، وله كذلك شعر جيد، كأبياته التي يصف فيها فعل الخمر في الرعوس، ومنها هذه الأبيات التي أوصى أن تكتب على قبره:

تأمل بحقك يا واقفاً      ولاحظ مكاننا وقمنا إليه  
تراب الضريح على وجنتي      كأنني لم أمش يوماً عليه  
أداوي الأنعام حذار المنون      وما أنا قد صرت رهناً لديه<sup>(٢٣٤)</sup>

وكان ابن جبير الرحالة شاعراً محسناً يقول المقطعات الجميلة بين الحين والحين، وشعره ذو معان فلسفية كقوله:

الناس مثل ظروف حشوها صبر      وفوق أفواها شيء من العسل  
تفر ذائقها حتى إذا كشفت      له تبين ما تحويه من دخل<sup>(٢٣٥)</sup>

وتحفل كتب الأدب بذكر نفر غفير من شعراء هذا العصر نذكر منهم ميمون بن الخبازة<sup>(٢٣٦)</sup>، ويحيى بن مجبّر (توفي ١١٩١/٥٨٧) المسمى ببحتري الأندلس<sup>(٢٣٧)</sup>، وأبا أحمد بن حيون<sup>(٢٣٨)</sup> وعبد البر بن فرسان<sup>(٢٣٩)</sup>، ويحيى بن غانية الميورقي<sup>(٢٤٠)</sup>، وابن الرفاء<sup>(٢٤١)</sup> الذي أبدع في وصف نافورة، ومحمد بن صفر<sup>(٢٤٢)</sup> الذي تغني بجمال وادي

المريّة وصور المد في مدخل «الوادي الكبير» بقوله:

حيث الجزيرة والخليج يحفها      يشكو إليها، صكي تجيب جواره  
شق النسيم عليه جيب قميصه      فانساب من شطيه يطلب ثاره  
فتضاحكت ورق الحمام بدوحة      هزماً، فضم من الحياء إزاره

وممن استهلم «الوادي الكبير» طرفاً من شعره إبراهيم بن سهل المتوفى سنة ١٢٥١/٦٤٩ وكان يهودياً فأسلم، وأدرك شهرة عظيمة؛ لأنه «اجتمع فيه دُلان: ذل العشق وذل اليهودية»، قال ابن سهل:

وكانما الأنشام فوق جنانه      أعلام خز فوق سُمرِ رماح  
لا غرو أن قامت عليه أسطراً      لما رآته مُدْرَعاً لكفاح  
وإذا تتابع موجسه لدفاعها      مالت إليه، وظل حلف صياح<sup>(٢٣٣)</sup>

ووصف الرصافي (المتوفى ١١٧٧/٥٧٢) النهر في أبيات رائقة:

ومهدل الشطين تحسب أنه      مُسَيَّلٌ من درة لصفائه  
فاعت عليه من الهجيرة سرحة      صدت لفيثتها صفيحة مائه  
وتراه أزرق في غلالة سندس      كالدارع استلقى لظل لوائه<sup>(٢٣٤)</sup>

أما أبو بحر صفوان بن إدريس (١١٦٥/٥٦١-١٢٠٢/٥٩٨) صاحب «زاد المسافر»، فقد كان شاعراً محسناً يهدي مقطعات نسيبه إلى من يتغزل فيه، كقوله:

يا حُسنهُ والحُسنُ بَعْضُ صِفائِهِ      وَالسُّعْرُ مَقْصُورٌ عَلى حَرَكَاتِهِ  
بَدراً لَو أن البَدْرَ قَبيلُ لهُ اقْتَرِح      أَملاً لَقالَ أَكُونُ مِنْ هالِاتِهِ  
وَإِذا هِلالُ الأفقِ قَابلُ وَجْهَهُ      أبصَرْتُهُ كَالشَّخْصِ فِي مِراةِهِ  
وَالحِمالُ يَنْقُطُ فِي صَفِيحَةِ خَدِّهِ      ما خَطَّ حَبْرُ الصَّدغِ مِنْ نونِاتِهِ  
صاَحِبْتُهُ، واللَّيْلُ يَدنِي تحته      نارينَ مِنْ نَفْسي وَمِنْ وَجْنااتِهِ  
فَضَمَمْتُهُ ضَمَّ البَحْرِ لِمالِهِ      أَحْنُو عَليهِ مِنْ جَميعِ جِوارِهِ

أوثقته في ساعدي لأثمة  
 وأبى عفاهي أن أقبل ثمره  
 ظبي حثيبت عليه من قناتيه  
 والقلب مطوي على جمراته  
 فشكو الظما والماء في لهواته<sup>(٣٥)</sup>

٤٢- أبو البقاء الرندي

وإلى جانب من ذكرنا كان هناك شعراء تروى لهم الأبيات في كتب الأدب، ولكن طبقاتهم في الشعر لم تكن عالية، ومن هؤلاء محمد بن عبد الرحمن الفسائي (١١٧٢/٥٦٨-١٢٢٢/٦١٩) الذي قال شعراً كثيراً في أنساب العرب أورده ابن الخطيب في «الإحاطة»<sup>(٣٦)</sup>، وأبو القاسم إبراهيم بن فرقد (الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثاني عشر) وهو من مورور، وله شعر كثير وصف به قرطبة ومسجدها الجامع وإشبيلية ومورور، وله كذلك قصائد يبكي فيها مصير الأندلس<sup>(٣٧)</sup>، وأبو الربيع بن سالم<sup>(٣٨)</sup> (١١٦٩/٥٦٥-١٢٣٦/٦٣٤) وكان تلميذاً لابن زهر وقد ضاع معظم شعره، وقد اشتهر أمره ببلاغته ومعرفته بالحديث.

وأولى أولئك جميعاً بالذكر أبو البقاء صالح بن شريف الرندي، وقد ظهر أمره وبقى ذكره بقصيدة يندب فيها ما اقتطعه من الأندلس فرندندو الثالث وجاقمه الأول (Jaimel)، وإليك أطرافاً منها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان  
 هي الأمور كما شاهدتها نون  
 وهنزه الدار لا تبقى على أحد  
 أين الملوك أو التيجان من يمن؟  
 وأين ما شادة شداد في إزم؟  
 دهي الجزيرة أمراً عزاء له  
 أصابها العين في الإسلام فارتزات  
 فاسأل بنفسية ما شأن مرسية  
 فلا يُعثر بطيب العيش إنسان  
 من سره زمن ساعته أزمان  
 ولا يدوم على حال لها شأن  
 وأين منهم أكاليل وتيجان؟  
 وأين ما ساسه في القرم ساسان؟  
 هوى له أخذ وأنهد هلالن  
 حتى حلت منه أقطار وتكدان  
 وأين شاطية أم أين جيان

من عالم قد سما طيها له شان  
وتهرها العذب فياض وملائن  
واليوم هم في بلاد الكفر عبيدان  
عليهم من ثياب الذل ألوان  
لهالك الأمر واستهوتك أحزان  
كما تفرق أرواح وأبدان  
كأنما هي ياقوت ومرجان  
إن كان في القلب إسلام وإيمان<sup>(٣٩)</sup>

وأيمن قرطبة دار العُوم فكَم  
أيمن حمص وما تحويه من نَزْ  
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم  
فلو نراهم حيارى لا ذكيل لهم  
وكون رأيت بكاهم عند يبعهم  
يا رب أم وطفل حيل بينهما  
وطفلة مثل حُسن الشمس إذ برزت  
لمثل هذا يبكي القلب من كَمَد

وقد وردت هذه القصيدة كذلك في «أزهار الرياض» للمقري (القاهرة ١٩٣٩) ج١، ص٤٧-٤٩؛ وجاء اسم الرندي هناك: أبو الطيب صالح بن شريف.

وقد طار ذكر هذه القصيدة وتداولها الناس، وبلغ من إعجابهم بها أن أضافوا إليها فيما بعد فقرات عن ضياع مدن أندلسية أخرى استغلبها النصراني بعد ذلك مثل بسطة وغرناطة. ويقول المقري في شأن هذه الزيادات: «ومن له أدنى ذوق علم أن ما زيد فيها من الأبيات ليست تقاربها في البلاغة؛ وغالب ظني أن تلك الزيادة لما أخذت غرناطة وجميع بلاد الأندلس، إذ كان أهلها يستهضون همم الملوك بالمشرق والمغرب، فكان بعضهم لما أعجبه قصيدة صالح بن شريف زاده فيها تلك الزيادات»<sup>(٤٠)</sup>.

وقد ترجم خوان فاليرا هذه القصيدة إلى شعر إسباني في نفس البحر الشعري الذي صاغ فيه شاعر إسباني هو خورخه مانريك، Jorge Manrique قصيدة مشابهة لها في الروح - في رأي فاليرا - وقد صاغها في قالب الفقرات Coplasp؛ بيد أن المدقق يستبين أن قصيدة الرندي لا تشبه قصيدة مانريك إلا في ترجمة فاليرا الشعرية البديعة فحسب<sup>(٤١)</sup>، أما الأصل العربي فبعيد عن ذلك. وعلى من يريد أن يدرس هذا الموضوع أن يفعل ذلك والأصل العربي بين يديه.

ف٤٣- ابن الأبار

يقول غرسية غومس: «وكان من الدلائل الواضحة على اضمحلال الأندلس مفادرة الكثيرين من أعلامه إياه إلى غير رجعة. فلم يعد الأندلسيون يخرجون إلى المشرق لطلب العلم ثم يعودون محمّلين بذخائر علومه، كما كانوا يفعلون قبل ذلك، وإنما أصبحوا يرحون الأندلس بزاد حافل من المعارف الأندلسية وينشرونها في أقطار نائية.

وهذا ما وقع لرجال كأبي الحسين بن جبير (وقد عاد إلى الأندلس) والصابوني والششتري، ومحي الدين بن عريي، وهو أهم هؤلاء جميعاً. وقد لجأ إلى بلاط الحفصيين في تونس نفر من علماء الأندلس وشعرائه مثل حازم القرطاجني (٦٠٨/١٢١١-١٢٨٥/٦٨٤) صاحب «القصيدة المقصورة» (التي قام على شرحها الشريف الغرناطي (١٢٩٧/٦٩٧-١٣٥٩/٧٦١) وهي مرثية مشبوبة العاطفة للأندلس تتضمن ذكريات كثيرة عما كان للناس في نواحي مرسية وقرطاجنة من مسرة ومتاع. ومن أولئك اللاجئين إلى تونس أبو الحجاج البياسي (١١٧٧/٥٧٣-١٢٥٥/٦٥٣) وكان لغوياً مؤرخاً شاعراً ذا إلمام نادر بما قالته العرب من شعر في الجاهلية والإسلام؛ حتى ليقال إنه كان يحفظ «حماسة» الطائي و«ديوان» المتبّي وكل ما قاله الستة المتقدمون من شعراء الجاهلية، وغير ذلك كثير. وقد وضع كتاباً سماه «الحماسة» ضمنه الكثير من الحكايات والأشعار وأخبار الشعراء وما إلى ذلك، وأورد ابن خلكان أطرافاً منه.

وأهم أولئك جميعاً أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الأبار القضاعي، فقد وصل إلينا من شعره أبيات جميلة رقيقة في النسب، وقصيد ذائعة الصيت ألقاها بين يدي أبي زكريا بن أبي حفص، وكان قد قصد في سفارة أرسلها الأمير «زيان بن أبي الحملات» الموحد صاهب بلنسية في ذلك الحين، وكان صاهب

برشلونة قد ألح عليها بالحصار، قال فيها:

إِنَّ الْمَسِيلَ إِلَى مَنَاجِيهَا دَرَسًا  
فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْرِ مَلْتَمَسًا  
فَطَالَ مَا ذَاقْتَ الْبَلْوَى صَبَاحَ مَسَا  
لِلْحَارِثَاتِ وَأَمْسَى جَدُّهَا نَعَسًا  
يَعُودُ مَا تَمُّهَا عِنْدَ الصُّدَى عُرْسًا  
إِلَّا عَقَائِلُهَا الْمَحْجُوبَةُ الْأُنْسَا  
مَا يَنْسِفُ النَّفْسَ أَوْ مَا يَنْزِفُ النَّفْسَا  
جَدْلَانِ وَارْتَحَلَ الْإِيمَانَ مُبْتَلَسًا  
يَسْتَوْجِشُ الطَّرْفُ مِنْهَا ضِعْفًا مَا  
وَمِنْ كَثَائِمٍ كَانَتْ قَبْلَهَا كُنْسَا  
وَاللُّدَاءُ غَدًا أَفْنَاءَهَا جَرْمَا (٢٤٦)

أَدْرِكْ بِحَيْلِكَ حَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلْمَا  
وَهَبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا التَّمَسَتْ  
وَحَاشَ مِمَّا تُعَازِيهِ حُشَاشَتَهَا  
يَا لِلجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهْلُهَا جُزْرًا  
فِي كُلِّ شَارِقَةٍ إِلْمَامٌ بِأَثَرَةٍ  
تُقَاسِمُ الرُّومَ لَا تَأَلَّتْ مَقَاسِمُهُمْ  
وَفِي بَلْسَرِيَّةٍ مِنْهَا وَقَرُطِبَةَ  
مَدَائِنَ حَلَّهَا الْإِنْشِرَاكُ مُبْتَلَسَمَا  
وَصَيَّرَتْهَا الْعَوَادِي الْعَارِثَاتُ يَهَا  
فَمَنْ دَسَاكِرَ كَانَتْ دُونَهَا حَرْمَا  
يَا لِلْمَسَاجِدِ عَادَتْ لِلْعُدَا بِيَعَا

وله أبيات رقيقة قالها في حديقة ياسمين:

تَهَيِّمُ بِقِيَرِهَا الْحَدِيقُ  
تَبَسُّمُ تَغْرِهَا الْبَيْقُ  
لَنْ فِي أَلْسِنَائِهَا الشُّفْقُ (٢٤٧)

حَدِيقَةٌ يَا سَمِينِ لَا  
إِذَا جَفَنُ الْقَمَامِ بَكَى  
كَأَطْرَافِ الْأَهْلِيَّةِ سَا

ومن بديع شعره الأبيات التالية في «الساقية»:

فَلَكَا وَلَكِنْ مَا ارْتَمَاهُ كَوْكَبُ  
تَرْوِيحَةَ الْأَزْوَاحِ سَاعَةَ يُنْصَبُ  
وَكَانَهُ وَهُوَ الْحَبِيمُ مُسَيَّبُ  
مِنْهُ الْحَدَائِقُ سَاهِقًا لَا يَشْرِبُ  
كَالْمُزْنِ يَسْتَسْقِي الْبَحَارَ وَيَسْكَبُ (٢٤٨)

لِللَّهِ دُولَابٌ تَرْقَى نَهْرَهُ  
نُصَبَتْهُ فَوْقَ النَّهْرِ أَيْدٍ قَدَرَتْ  
فَكَأَنَّهُ وَهُوَ الطَّلِيْقُ مَقِيدُ  
هَامَتِ بِهِ الْأَحْدَاقُ لَمَّا نَادَمَتْ  
لِلْمَاءِ فِيهِ تَصْعُدُ وَتَحْدَرُ

ولأبي الحسن علي بن سعة الخير أبيات في هذا المعنى (٢٤٥).



الريح أقود ما تكون فإنها  
وتميل الأغصان بعد إبانها  
ولذلك العشاق يتخذونها  
رسلاً إلى الأحباب والإخوان<sup>(٢١٧)</sup>

ويقول متحدثاً عن نفسه: ومما لم يسبق المملوك إليه قوله:

وانظر إلى سفح الخليج كطائر  
لقي الصبا من موجه بجناح  
وقوله:

والشمس من ألم الفراق مريضة  
مدت لتوديع البحيرة راحاً<sup>(٢١٨)</sup>

وقد طار اسم ابن سعيد في القرن الماضي (في إسبانيا) بأبيات ترجمها له خوان فاليرا في شعر إسباني جميل يتحدث فيها عن وطنه وحبه له يقول فيها:

هذه مصر، فأين المغرب؟  
فارقته النفس جهلاً إنما  
أين حمص؟ أين أيامي بها؟  
كم تقضى لي بها من لذة  
وحمام الأيك تشدو حولنا  
أي عيش قد قطعناه بها  
ولكم بالمرج لي من لذة  
والنواعير التي تذكرها  
ولكم في شنتبوس من منى  
وغناء كل ذي فقر له  
بلدة طابست ورب غافر  
أين حسن النيل من نهر بها  
كم به من زورق قد حله

مذ نأى عني دموعي تسكب  
يمرف الشيء إذا ما ينهب  
بعدها لم الق شيئاً يجب  
حيث للنهر خريز مطرب  
والثاني في دراهما تصخب  
ذكره من كل نعمي أطيب  
بعدها ما العيش عندي يعذب  
بالنوى عن مهجتي لا ينسب  
قد قضيناها ولا من يعتب  
سامع غصبا ولا من يغصب  
ليتنى ما زلت فيها أذنب  
كل نعمات لديه تطرب  
قمر ساق وعود يُضرب

قلب صَبَّ بالنوى لا يُغَلَّب

وإلى مالتة يهفو هوى

حت كاسي في ذراها كوكب  
أتراها حذرت من ترقب

أين أبراج بها قد طالما  
جاعت الريح بها ثم انتثت

.....

في ذرا مصر ففكر متمب  
لم تصدق ويحها من يكذبنا  
فيه وصفاً كي يميل الفئيبنا  
وكلامي ولمساني مغرب  
أكتب الطرس، أهيه عقرب<sup>(٢٤٩)</sup>

هذه حال وأما حالتي  
لأسمعت أذني معالاً ليتهأ  
لوكذا الشيء إذا غاب انتهوا  
ها أنا فيها فريد مهمل  
وأرى الأحماسا تلبو عندما

## ٦- مملكة غرناطة

ابن الخطيب- ابن زمرک

فهو- ابن الخطيب (كشاعر)

كان الشعر الأندلسي خلال العصر الغرناطي (١٢٦٦/٦٦٥-١٤٩٢/٨٩٨) يلفظ آخر أنفاسه، مثله في ذلك مثل غيره من فروع الثقافة الإسلامية في الأندلس: كانت كلها تعيش على أصداء الماضي.

ولقد قسم غرسية غومس - في بحثه عن ابن زمرک - العصر الغرناطي من الناحية الثقافية إلى ثلاث فترات: فترة غلب فيها التأثير النصراني، وكان ذلك على أول أيام دولة بني نصر، إذ كان أولئك الأخيرون أفضالاً (اتباعاً) صرحاء للموك قشتالة: والفترة الثانية - خلال القرن الرابع عشر الميلادي - فترة بين بين، اختلطت فيها المؤثرات المسيحية بالمؤثرات الشرقية الإفريقية. أما الفترة الثالثة - خلال القرن الخامس عشر - فقد غلب فيها الطابع الإفريقي المشرقي على مملكة غرناطة وثقافتها بصورة واضحة جداً. وذكر غومس كذلك أنه خلال الفترة الثانية، كانت عناصر الحضارتين: المسيحية الغربية والمشرقية الإفريقية، تتفاعل هذا التفاعل الذي سيتولد عنه فيما بعد كيان سياسي ثقافي خاص<sup>(٢٥٠)</sup>.

ولقد عبّر ابن خلدون عن ذلك بأجلى بيان في مقدمته؛ وذلك حيث قال: «وكانني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب، لكن على نسبه ومقدار عمرانه، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض، فبادر بالإجابة، والله وارث الأرض ومن عليها. وإذا تبدلت الأحوال جملة، فكانما تبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث»<sup>(٢٥١)</sup>.

وتتبدى لنا في عالم الشعر خلال هذا العصر شخصيتان تكادان تكونان

فريدتين في بابهما: الأولى شخصية ابن الخطيب (١٣١٣/٧١٣-١٣٧٤/٧٧٦) أكبر مؤرخي ذلك العصر وأعظم شعرائه.

ونذكر من شعره قصيدته العصماء التي وجه بها إلى أبي عنان سلطان بني مرين - وكان قصده موفداً من قبل سلطانه محمد الفتي بالله لاستتصاره على مغالبة النصارى - ومطلعها:

خَلِيفَةَ اللَّهِ سَاعِدَ الْقَدَرِ      عُلَاكَ مَا لَاحَ فِي الدُّجَى قَمَرُ  
وَدَاقَعْتَ عَنكَ كَفَّ قُدْرَتِهِ      مَا لَيْسَ يَسْتَطِيعُ دَفْعَهُ الْبَشَرُ  
وَجَهَّكَ فِي النَّائِبَاتِ بَدَلُ دُجَى      لَنَا وَفِي الْمَحَلِّ كَفُّكَ الْمَطَرُ  
وَالنَّاسُ طُرّاً بِأَرْضِ أَنْدَلُسِ      لَوْلَاكَ مَا أَوْطَنُوا وَلَا عَمَرُوا<sup>(٧٥٧)</sup>

وله قصيدة أخرى نحا فيها نحو القدماء وجه بها إلى السلطان أبي سالم سلطان مراکش، يسأله فيها أن يجير محمد بن يوسف بن إسماعيل بن نصر المخلوع عن عرش غرناطة مطلعها:

سَلَا هَلْ لَدَيْهَا مِنْ مُخْبِرَةٍ ذَكَرَ      وَهَلْ بِأَكْرَ الوُصْمِيِّ دَارًا عَلَى اللُّوِي  
وَهَلْ بِلَادِي الَّتِي عَاطَيْتُ مَشْمُولَةَ الْهَوِي      بِلَاكِنَافِهَا وَالْعَيْشُ فَيَنْتَانُ مَغْضَرُ  
وَجَوِّي الَّذِي رَيْسُ جَنَاحِي وَكُرُّهُ      هَهَا أَنَا ذَا مَا لِي جَنَاحٌ وَلَا وَكُرُ  
ويقول فيها:

أَقُولُ لِأَطْلَعَانِي وَقَدْ غَالَهَا السُّرَى      وَأَنْسَهَا الْحَادِي وَأَوْحَشَهَا الزُّجُرُ  
رَوِيدَكَ، بَعْدَ الْعَسْرِ يَسْرُ فَابْشُرِي      بِيَأْنِجَازِ وَعَدِ اللَّهُ، قَدْ ذَهَبَ الْعَسْرُ  
ويقول فيها:

قَصِدْنَاكَ يَا خَيْرَ الْمُلُوكِ عَلَى النَّوَى      لَتَتَصَفَّنَا مِمَّا جَنَى عِبْدُكَ الدَّهْرُ  
كَفَّفْنَا بِكَ الْأَيَّامَ عَنْ غُلُوثِهَا      وَقَدْ رَابْنَا مِنْهَا التَّمَسُّفَ وَالْكَبْرُ<sup>(٧٥٨)</sup>

وله أبيات جيدة أوحاها إليه وقوفه بقبر المعتمد بن عبادة قال فيها:

قد زُرْتُ قَبْرَكَ عَنْ طَوِّعٍ بِأَغْمَاتٍ      رَأَيْتُ ذَلِكَ مِنْ أَوْلَى الْمَهْمَاتِ  
بِمَ لَا أَدُورُكَ يَا أُنْدَى الْمُسَوِّكِ يَدَا      وَيَا سِرَاجَ الْأَلْيَالِي الْمُدْكَهْمَاتِ  
وَأَنْتَ مَنْ لَوْ تَخَطَى الدَّهْرُ مَصْرَعَهُ      إِلَى حَيَاتِي أَجَادَتَ فِيهِ أُبْيَاتِي  
أَنْفَا قَبْرَكَ فِي هَضْبٍ يَمِيزُهُ      فَتَنَّتْكُمْ بِهِ حَقَائِقُ التَّجْرِيَاتِ  
كَرُمْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا وَاشْتَهَرْتَ عُلَا      فَأَنْتَ سُلْطَانُ أَحْيَاءٍ وَأَمْوَاتِ  
مَا رَأَيْ مِثْلَكَ فِي مَاضٍ، وَمُعْتَقِدِي      أَنْ لَا يَرَى الدَّهْرُ فِي حَالٍ وَجِدَ آتِي<sup>(٧٥١)</sup>

ونختم حديثنا عن ابن الخطيب الشاعر بهذه الأبيات الفياضة بصدق العاطفة وجلال الإيمان، التي قالها في محبسه «يتوقع مصيبة الموت فتجيش هواتفه بالشعر يبكي نفسه»:

بَعْدُنَا وَإِنْ جَاوَزْنَا الْبُيُوتَ      وَجِئْنَا بَوَعظٍ وَنَحْنُ صُمُوتُ  
وَأَنْفُسُنَا سَكَتٌ دَفْقَةٌ      كَجَهْرِ الصَّلَاةِ لَأَلَاءِ السُّنُوتِ  
وَكُنَّا عِظَامًا فَصَرَرْنَا عِظَامَا      وَكُنَّا نَقُوتُ فَمَا نَحْنُ قُوتُ  
وَكُنَّا شَمُوسَ سَمَاءِ الْعَلِيِّ      غَرِينٍ فَتَاحَتْ عَلَيْهَا الْبُيُوتُ  
فَقُلْ لِلْعَدَا ذَهَبَ ابْنُ الْخَطِيبِ      وَهَاتِ وَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَصُوتُ؟  
فَمَنْ كَانَ يَقْرَحُ مِنْكُمْ لَهُ      فَقُلْ: يَقْرَحُ الْيَوْمَ مَنْ لَا يَمُوتُ<sup>(٧٥٥)</sup>

ف٤٦- ابن زمرك

أما الشخصية الثانية، وآخر علم من أعلام الشعر الأندلسي فأبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الشريحي المعروف بابن زمرك أو ابن زمرك (١٢٢٢/٧٢٤-١٢٩٢/٧٩٦) تلميذ ابن الخطيب وخلفه في الوزارة، الذي لم يتردد في تتبعه بالأذى، ولم يحجم عن الإفادة من موته المحزن.

ولدينا الآن معلومات واقية عن أشعاره: قصائده، ووصفياته، ومرتجالته،

وموشحاته، بغضل البحث الذي كتبه عن غرسية غومس، وقد أشرنا إليه. ولدينا كذلك فكرة دقيقة عن علمه باللغة وتملكه زمامها. ويتردد في بعض شعره صدى للحب العذري. وأكثر شعره دلالة على شخصه وفنه تلك الأبيات التي قالها في قنديل مضاء

لقد زادني وجداً وأغرى بي الجوى  
يلوح سناناً حين لا تنفع الصبا  
قطعت به ليلاً يطارحني الجوى  
إذا قلت لا يبدو أشال لسائه  
إلى أن أفاق الصبح من غمرة الدجى  
لك الله يا مصباح أشبهت مهجتي  
ذُبالٌ بأذيال الظلام قد التفتاً  
ويبدي سواراً حين تُثني له العظما  
فأونى يسبدو وأونى يخفى  
وإن قلت لا يخفى الضياء به كفاً  
وأهدى نسيم الرّوض من طيبه عرفاً  
وقد شفها من لوعة الحب ما شفاً<sup>(٢٥٦)</sup>

وكان ابن زمرك معنياً - إلى جانب المدائح التي كان يقولها في السلاطين - بقرص المقطعات الوصفية، وخاصة في صفة «الحمراء» وقصورها وبساتينها، والحفلات التي كانت تقام في قصورها، وقد جدد بذلك ذكرى أيام ابن خفاجة ودل على أنه تلميذه غير المباشر. واليك مثلاً من ذلك ما قاله في صفة حدائق «قصر شئيل» وقد خرج الأمير محمد الخامس (الغنى بالله) للنزهة فيها:

يا قصر شئيل وريمك أهل  
لله بحرك والصبا قد سردت  
والأس حفاً عذاره من حوله  
قبّل بثغر الزهر كصف خليفة  
واقرش خدود الورد تحت نعاله  
وانظم غناء الطير فيه مدائحاً  
والرّوض منك على الجمال قد  
منه دروعاً تحت أعلام الشجر  
عن كل من يهوى العذار قد اعتذر  
يُفتيك صوب الجود منه عن المطر  
واجعل بها نون المضاعف عن خفر  
وانثر من الزهر الدراهم والدرر<sup>(٢٥٧)</sup>

ولابن زمرك قصائد أخرى يصف فيها «قصور الحمراء» في مجموعها. وشعره فيها يبدو وكأنه «أنغام راقصة متدفقة، ترقص على وقعها الزهور والنجوم، وتفيض بالأخيلة والتشبيهات المتشابكة. وإن من يعرف هذه القصور؛ ليجد في ذلك

الشعر تصويراً بديعاً رائعاً لها» (٢٥٨).

ويقول غومس في موضع آخر: «وقد نُقِشت بعض أبيات ابن زمرك على جُدُر الحمراء، وهي تكونُ جزءاً لا ينفصل من زخارف قصور بني نصر». وإليك نموذجاً منها أبياتاً كان بعضها منقوشاً على جُدُر «بهو الأختين» في الحمراء، وهي من قصيدته المعروفة التي قالها في وصف دار الملك التي ابنتها السلطان محمد الغني بالله و مطلعها:

سل الأفق بالزهر الكواكب حالياً  
وحملت معتل النسيم أمانة  
ويقول فيها:

ولله مبناك الجميل فإنه  
فكم فيه للأبصار من مُنزه  
وتهوى النجومُ الزهر لو بُثت به  
ولو مكّنت في سابقه لمابقت  
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا  
وكم حلت جلالته يحلُّ بها  
وكم من قمر في ذراه ترفعت  
فتحسبها الأفلاك دارت قسيها  
سوارى قد جاءت بكل غريبة  
به المرمر المجلو قد شف نوره  
إذا ما أضابت بالشمع تخالها  
به البحر دفاع العباب تخاله

يفوق على حكم السعود المبانيا  
تجدُّ به نفس الحليم الأمانيا  
ولم تك في أفق السماء جواريا  
إلى خدمة ترضيك منها الجواريا  
به القصر آفاق السماء مبانيا  
من الوشي تُسمى السابريّ اليمانيا  
على عمد بالنور باتت حواليا  
كظل عمود الصبح إذ بات بلديا  
فطارت بها الأمثال تجرى سواريا  
فيجلو من الظلماء ما كان داجيا  
على عظم الأجرام منها لأكيا  
إذا ما انبرى وقد النسيم مباريا<sup>(٢٥٩)</sup>

... إلخ

وعاش في ذلك العصر ابن الحجاج النميري، وقد سبق ابن الخطيب بجيل إذ

توفي سنة ١٣٦٢/٧٦٤. وقد ولد في وادي آش وسكن في غرناطة وفيها عاش، وكان كاتباً ذا أسلوب فكه. ومما يقال في شأنه أنه: كان عذب الحديث وطبقة عالية في الشعر.

## (ب) الاتجاه الشعبي الدارج

نظرية ريبيرا الجديدة - الزجل والموشحة - مبتكرها مقدم  
ابن معاضى القبري - تطور هذين الفئتين ونضوج صناعتها -  
أوائل الزجالين - ابن قزمان وديوانه - مدرسة ابن قزمان.

## ف٤٧-نظرية ريبيرا الجديدة

أصبح من الواضح - نتيجة للأبحاث التي قام بها الأستاذ حُليان ريبيرا - أن أهل الأندلس الإسلامي كانوا يستعملون العربية الفصيحة كلفة رسمية يتعلمها الناس في المدارس ويكتبون بها الوثائق وما إليها؛ أما في شؤونهم اليومية وأحاديثهم فيما بين بعضهم وبعض فكانوا يستعملون لهجة من اللاتينية الدارجة أو العجمية <sup>(٣٦٠)</sup> el romance.

وليس ذلك بغريب؛ لأننا إذا ذكرنا أن عدد العرب الخُلص الذين دخلوا الجزيرة كان قليلاً جداً، تبيّننا أننا لا نستطيع اعتبار الأندلسيين المسلمين ساميين أو مشاركة، ابتداء من جيلهم الثالث أو الرابع من بعد الفتح؛ ولنضف إلى ذلك أن شعوب أوروبا كانت تستعمل في ذلك الحين اللاتينية كلفة، وأن ناسها كانوا يتحدثون إلى جانبها لهجات أعجمية romance مختلفة مشتقة من اللاتينية.

وكان هذا الازدواج في اللغة هو الأصل في نشوء طراز شعري مختلط، تمتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية. وقد ازدري أهل الأدب الفصيح والمعنيون بأمره هذا الطراز الجديد، بينما مضى الناس جميعاً يتناقلون مقطعاته سرّاً فيما بينهم، وذاع أمره داخل البيوت وفي أوساط العوام، وما زال أمره يعظم والإقبال عليه يشتد؛ حتى أصبح في يوم من الأيام لونها من الأدب. وقد أخذ هذا الطراز الجديد من الأدب الشعبي صورتين: إحداهما «الزجل»، والثانية «الموشحة».

أما الزجل فشعر يصاغ في فقرات تسمى أبياتاً. وتبدأ مقطوعته ببيت يعرف «بالمركز» أو «السمط» تليه أغصان ذات قافية واحدة ووزن واحد، يتكون الغصن منها من ثلاثة مصاريع أو أكثر، ثم يعقبها بيت في نفس وزن المركز وقافيته، وهكذا.

وأما الموشحة فنُظِّمَتْ تكون فيه القوافي اثنتين اثنتين كما هو الحال في الوشاح، وهو العقد يكون من سلكين من اللآلئ لكل منهما لون. فالتسمية هنا تشير إلى طريقة تأليف القوافي، وهي تشبه الزجل فيما عدا ذلك. أي أن الموشحة تتألف من فقرات تسمى الأبيات، كل فقرة منها تتكون من عدد معين من أشطار البيوت في قافية واحدة، وتعقب كل فقرة خرجة في بحر أشطار الغصن ولكن في قافية أخرى؛ ويستلزم الوشاح قافية هذه الخرجة في كل خرجات موشحته، أما الأغصان فقد يكون كل منها على قافية، ولكن من بحر واحد.

والزجل والموشحة في واقع الأمر فن شعري واحد، ولكن الزجل يطلق على السوقي الدارج منهما؛ إذا لا بد أن يكون في اللغة الدارجة، فقد كان يُتغنى به في الطرقات. أما الموشحة فلا تكون إلا في العربي الفصيح، واسمها كذلك عربي كما هو واضح؛ وربما استطعنا أن نقول: إن لفظ الموشحة يطلق على المهدب من الزجل الذي تستعمل فيه الفصحى أو ينظم في أسلوب أرفع من أسلوب الأزجال<sup>(٦١)</sup>.



مُرْبَعٌ جَيِّدٌ مَرَفٌ  
 لَمْ يُرْمَ ثَلُّ نَصْفٌ  
 وَلَسَّ أَنْتَ إِلَّا مَرَفٌ

وَأَلْزَمِي قَلْنَا فَضُولٌ<sup>(\*)</sup>

إِشْ لَوْ أَنْ يَبْدَأَ نَبْرَاكُ  
 إِذْ نَجِي وَفَتَّ جَفَاكُ  
 كَانَ تَخْلُّ بَيْنَ كَذَاكَ

هَازِدُ شَيْئًا قَتُولٌ<sup>(\*)</sup>

الْوَفَا لَسَّ بَعْدُ  
 غَيْرَ أَمِينٍ عَبْدُ الصَّبْرِ  
 لَسَّ لِمَدِيحٍ نَدَخَلُ بَعْدُ

(\*) مر بعد: اصطلاح أندلسي يستعمله ابن قزمان كثيراً، ومعناه حسناً .. أو بالعامية: خلاص ..

أو: طيب يا سيدي. والهاء المفردة المضمومة معناها «هو». وأت: أنت.

حسناً .. إن إسرافه (في الدلال) جيد

(إذ) لم يعرف الناس مثله منصفاً

(وعلى أي حال) فلست أنت إلا طرفاً (في ذلك الحب)، وكل ما قلنا فضول ولفو.

(\*) إش لو أن: وما عليك لو .. وبالعامية: فيها إيه يعني لو .. يذا: أيضاً كان تخلين: لأنك إذ

تدعني ..

معنى البيت:

وماذا عليك لو أنك سمحت لي برؤياك

فأجيب إليك وقت جفاك

لأن تركك إياي هكذا

هذا شيء قاتل

تُرَى ما أُمْلَحَ ذا الدُّخُولِ<sup>(\*)</sup>

هَآذُهُ يَا ابْنَ طَرْفٍ

فَالْمَقَامِ ضَرْبٍ وَكَيْفٍ

أَهْنَا جَا: قَفَا، وَوَقَفَا

والكلام في يطول<sup>(\*)</sup>

فَكَذَاكَ طَالَ يَنْدُ فِيهِ

(\*) لَسْتُ، تُطْلَقُ بِمَدِّ الْوَاوِ: لَسْتُ، لَيْسَ. لِحَدٍّ: لِأَحَدٍ. أَمِينُ عَبْدِ الصَّمَدِ: لَا يَفْهَمُ إِذَا كَانَ الْمُرَادُ هُنَا اسْمُ الْمَمْدُوحِ كَامِلًا، أَوْ رَجُلًا يَرِيدُ أَنْ يَصِفَهُ بِأَنَّهُ أَمِينُ قَوْمِهِ آلِ عَبْدِ الصَّمَدِ. مَعْنَى الْبَيْتِ:

الوفاء لا يوصف به أحد

غير أمين عبد الصمد

وَنَدَخَلَ بَعْدَ ذَلِكَ لِلْمَدِيحِ

وَمَا أَحْسَنَ هَذَا الدُّخُولِ

(\*) فِي مَسْتَهْلِ الْقِسْمِ الثَّانِي مِنَ الرَّجْلِ، وَهُوَ قِسْمُ الْمَدِيحِ، يَقِفُ، ابْنُ قَرْظَمَانَ لِحِظَةِ لِيَمْدَحَ نَفْسَهُ، وَمَا أَكْثَرَ مَا يَمْدَحُ نَفْسَهُ فِي أَزْجَالِهِ.

هَآذُهُ: هَذَا هُوَ، وَالْمُرَادُ هُنَا: هَذِهِ يَا بَنِي طَرْفٍ. فَالْمَقَامِ: فِي الْحَالِ، دُونَ صَعُوبَةٍ، دُونَ تَفْكِيرٍ طَوِيلٍ. ضَرْبٍ وَكَيْفٍ: يَمِيلُ الدُّكْتُورُ الْإِهْوَانِيُّ إِلَى اعْتِبَارِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ مِنْ أَصْطِلَاحَاتِ النَّسَاجِينَ فِي الْأَنْدَلُسِ، وَمَعْنَاهَا: أَتَمَّ الْعَمَلِ، فَرَّغَ مِنَ الشَّيْءِ، أَهْنَا جَا: هُنَا يَجِيءُ الْقَوْلُ، هُنَا يَصْدُقُ قَوْلُنَا. قَفَا وَوَقَفَا: قَفَا لَتَسْمَعَ بِدِيْعِ الْقَوْلِ، وَوَقَفَا بِالْفِعْلِ لِيَسْمَعَ. مَعْنَى الْبَيْتِ:

تلك يا بني طرف (من الشعر)

في الحال أصوغ ما أريد من القول

فإذا قلت زجلاً قيل: قف لتسمع .. ويقف الإنسان

والكلام في يطول.

إنَّ عَالَمَ وَقْتِهِ

وَإِذَا قُلْتِ نَبِيَّهُ

فَيَجِيبُكَ أَنْ تَقُولِ<sup>(\*)</sup>

وَالَّذِي مَسَّحَ أَقْلَهُ

شَرَفَ أَجْدَادَهُ وَسَمَّاهُ

وَالأَصْلَ قَطْعَ الأَصْلِ

لا فروع دون الأصول<sup>(\*)</sup>

يَا أَيُّهَا كُلُّ نَبِيٍّ

السَّقَّ رِجْلَكَ فِي السَّرْكَابِ

هَانَتْ فَاصِحَابِكَ شَبَابِ

(\*) طال: طال القول، يطول القول. بدأ: أيضاً. فيه: في المدوح. إن: إنه.

المعنى:

وكذلك يطول المديح فيه أيضاً

إنه عالم وفقهه

وإذا قلت إنه نبيه

فعليك أن تردد هذا القول أنت أيضاً.

(\*) مأع: معه، عنده، ما يعمله. نسل: نسل، والمراد به هنا: حسب. قط: فحسب.

المعنى:

والذي أعلمه من فضائله أقل ما عنده

شرف أجداد ومحتد

ويكفيه أصله الكريم، وما أدراك ما الأصل

إذ لا فروع دون أصول.

فَأَنْتَ هُ هَالِدَوْلٌ هَيُولٌ<sup>(\*)</sup>

ثَمَّ هَمَّ يَبِيْعَةُ خَطَطُ  
القَضَاءِ وَالْإِئْتَمَ قَطُ  
وَالثَّنَاءُ فِيهِمْ أَشْهُطُ

إنما اخترت الفصول<sup>(\*)</sup>

قَاسِمِي الْقَابِ رَحِيمِ  
فَاتَقَى غَمِيظَ الْحَلِيمِ  
وَإِذَا أُمَّنْ كَرِيمِ

(\*) الق رجلك في الركاب: تقدم، ادخل الميدان. فأنت: إذ إنك. فاصحابك: في أصحابك، من بين أقرانك. الدؤل: الدولة. هيول: هائل، عظيم  
المعنى:

يا لباب كل لباب

تقدم وادخل في الميدان

إذ إنك من بين أصحابك شاب قوى

وأنت في الدولة ذو محل عظيم

(\*) بيته: بيت. خَطَطُ: خطط، جمع خطة، وهي المنصب الكبير. القضاة: خطة القضاء متداولة بين أفراد هذا البيت. والإئتم قط: لا يوجد فيه إئتم البتة، ويرى الدكتور الإهواني أن إئتم هنا تحريف للاسم، والمعنى على هذا الاعتبار: إن خطة القضاء والاسم - أي الشهرة - في هذا البيت وحده. أشط: أطول. الفصول: بعض الأشياء.

المعنى:

ثم إنهم بيت تولى أفراد الخطط والولايات الكبيرة

فقيهم خطة القضاء، ولهم وحدهم الشهرة

والثناء عليهم يطول

ولكني اكتفيت منه ببعضه

وإذا كَلَّفَ حمولاً<sup>(\*)</sup>

والى هذا الجلال

منظره ليس له مثال

أج بحال دارة هـ لال

أو بحال وُج دَشُول<sup>(\*)</sup>

لا نموت حتى نراك

قال بلد قاضي كذاك

وترى غايبة مُنَاك

ولا يلحقك خمولاً<sup>(\*)</sup>

لولا هـ ما فالطريق

كُن يجي أكثر رقيق

إنما هذا الدقيق

(\*) معنى هذا البيت واضح.

(\*) والى هذا: وبالإضافة إلى هذا. لس: ليس. أج، وج: وجه. دشول: عبارى إسبانية de sol أي:

شمس.

المعنى:

وبالإضافة إلى هذا الجلال

منظره ليس له مثال

له وجه كأنه دائرة الهلال

أو كأنه وجه الشمس.

(\*) معنى هذا البيت واضح.

وقعت فيه المقول<sup>(\*)</sup>

كَفًا نَرَى حُبْرًا يَبْزُجُ  
أَسْوَدَ أَسْوَدٍ مِثْلَ بَيْجٍ  
فِي إِيدِي نَقَطُ بَيْجٍ

ودقيق حُمصن وفول<sup>(\*)</sup>

وَسَمَّا مِثْلَ النَّحَاسِ  
وَنَقَّاقَ فِي كُلِّ رَاسٍ  
لِي يَجِي مَاعُ نُفَاسِ

(\*) فالطريق: في الطريق، في طريقي، في حياتي. كن: كان، أي كان هذا الشعر. أكثر رقيق: أكثر رقة. الدقيق: المراد به دقيق القمح. وقعت: تاهت. المعنى:

ولولا أن الهموم في طريقي ومن حولي  
لجاء زجلي هذا أكثر رقة  
ولكن حاجتي إلى الدقيق  
شغلت عقلي وحالت بينه وبين الإجابة.

(\*) كف: كيف. حُبْرٌ: حُبْرَةٌ: رَغِيفٌ. بَيْجٌ: paniza رغيف صغير من الخبز. بيج: pex: نار. إيدين: أيدٍ. تقطيع أو نفضيج: لم أستطع معرفة معنى هذا اللفظ. المعنى:

كيف يتاح لي أن أحصل على رغيف صغير من الخبز  
ولو كان أسود مثل القار  
في أيدي تقطيع  
ودقيق حمص وفول؟

وبلا عرض وطول<sup>(\*)</sup>

وترى عاذا ذا العمـ  
وقيام من حُب الجـ  
كل شيء كان يُـ

لو سلم هذا السبـ<sup>(\*)</sup>

وصحو، واللـ  
وشرتا ضـ  
وحق في مرئـ

(\*) يريد ابن قزمان هنا أن يصف الجفاف وقلة المطر وسوء الأحوال، وكان الأندلسيون يشبهون السماء الصافية التي لا سحب فيها بالنحاس.  
المعنى:

والسما الصافية كأنها قبة من نحاس  
وقد فاضت الرعوس والقلوب بالنفاق والخلاف  
وفي مثل هذه الأحوال يستعصي النعاس  
وهذا الشرك كله لا نهاية له.

(\*) عاد: أيضًا. صحب الجبل، صاحب الجبل. لا بد أن ابن قزمان يشير هنا إلى عدو كان يحاصر قرطبة ويقطع السبل إليها، ولسنا نعرف إلى من يشير بالضبط. وقد يكون المراد بصحب الجبل: أهل الجبل، أي قطاع الطرق. السبول: السبل، أو الطرق.  
المعنى:

ثم إنك ترى أيضًا هذا العمل  
بالإضافة إلى قيام صاحب الجبل  
وكان كل شيء يحتمل  
إلا انقطاع هذه الطرق

إنما فيها السيول<sup>(\*)</sup>

ندعو الله المجيب

الفرج من قريب

والهوى ذائب يطيب

والشتا على النزول<sup>(\*)</sup>

أر ما شيت لمن تـرد

حط قسط إثم ما تجرد

الله الله كـذ كـذ

لس نريد منه مطول<sup>(\*)</sup>

(\*) شتا: مطر. حق: حقاً. مرسى غبار: يقلب على الظن أن هذا اسم موضع قد يكون هو مقام

المدوح.

المعنى:

والجو صحو لا مطر فيه، والليل كأنه نهار

والمطر قد أصبح ضعيفاً

حقاً إنه في مرسى غبار

فهناك تجد السيول.

(\*) من: منه. الهوى: الهواء. ذاب: الآن. على النزول: على وشك الهطول.

المعنى:

إننا ندعو الله المجيب

والفرج منه قريب

أن يطيب الهواء الآن

ويأخذ المطر في الهطول.

(\*) أر: هات. إثم: أي شئ، ما، كد: في سرعة. ومطول: مطل.

ويمكننا أن نقارن هذا الزجل بزجل إسباني صرف من نفس الوزن والنوع

للشاعر الإسباني ألفاريدو فيليبا سانديفو Alavarez de Villasandino:

AA, ddda	Vivo ledo con razón amigos; toda sazón.	}	مركز أو سمط
e	Vivo ledo e sin pesar,		}
d	pues amor me hizo amar	خرجة	
d	a la que podré llamar	أغصان	
a	mas bella de cuantas son.	}	خرجة
e	Vivo ledo e vivré		أغصان
e	pues que que dé amor alcancé		خرجة
e	que serviré la que sé		
a	que me dara galardón.		وترجمته:

إنني يا رفاقي أحيأ حياة مرحة  
كل أيام حياتي، وأنا محق في ذلك  
إنني أعيش مرحاً دون هموم  
لأن الحب أتاح لي أن أعشق  
تلك التي يمكننا أن نقول إنها

المعنى:

هات ما شئت فلست أرفض شيئاً  
ضع فقط أي شيء تجده  
الله الله .. أسرع .. أسرع! فلست أريد مطالاً.

أجمل النساء جميعاً.  
 إنني أعيش مريحاً وسأعيش وهكذا  
 لأنني عن طريق الحب وصلت  
 إلى من أعرف أنها يخدمتي لها  
 ستجازيني خير الجزاء.

ووزن أبيات هذا الرجل إذا: ا ا، ب ب ب ا، (ا ا)، ج ج ج ا، (ا ا) .. إلخ.  
 ولكن هذا الوزن هو أبسط أوزان الأزجال، فمنها ما تكون الخرجة فيه مكونة  
 من شطر بيت أقصر في الوزن من أشطار الغصن، وهذه الأشطار بدورها تكون  
 على نفس وزن المركز القصير.

وهناك أزجال تكون الخرجة فيها مكونة من بيت ذي شطرين، وأزجال أخرى  
 تكون الأغصان فيها على أوزان مُضَفَّرَة متبادلة، وثالثة تكون في الأغصان أربعة  
 أربعة بدلاً من ثلاثة ثلاثة، ورابعة تكون الخرجة فيها ثلاثة أشطار، وخامسة وردت  
 من غير مركز .. إلخ.

وهذه الصور كلها ذات أهمية خاصة عند مقارنة الأزجال بأوزان الشعر  
 الأوروبي.

ف ٤٩ - مقدم بن معافى القبري، مبتكر الموحشة<sup>(٣٣)</sup>

كان أول من استعمل هذا الفن الشعري مقدم بن معافى القبري الضرير الذي  
 عاش بين سنتي ٨٤٠/٢٢٥ و ٩١٢/٢٩٩، وفي ذلك يقول ابن بسام تحت عنوان:  
 «فصل في ذكر الأديب أبي بكر عبادة بن ماء السماء وإتيان جملة من شعره مع ما  
 يتعلق بذكره»، قال: «قال أبو الحسن: وكان أبو بكر في ذلك العصر الدولة  
 العامرية والحمودية» شيخ الصناعة وإمام الجماعة، سلك إلى الشعر مسلكاً سهلاً،

فقال له غرائب: مرحباً وأهلاً ...

وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها، ووضعوا حقيقتها، غير مرقومة البرود، ولا منظومة العقود، فأقام عبادة هذا منارها ومرساها ومنادها، لوقوم مليها وسنادها، فكانما لم تُسمع بالأندلس إلا منه ولا أخذت إلا عنه، واشتهر بها اشتهاً غلب على ذاته وذهب بكثير من حسناته. وهي أوزان كثيرة الاستعمال عند أهل الأندلس في الغزل والنسيب، تُشَقُّ على سماعها مصونات الجيوب، بل القلوب ..

وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقتنا واخترع طريقتنا - فيما بلغني - مقدم بن معاض القبري الضرير، وكان يصنعها على أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعارض المهملة غير المستعملة، يأخذ اللفظ العامي أو العجمي فيسميه المركز، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان.

وقيل إن ابن عبد ربه صاحب «كتاب العقد» كان أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات، ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادي، فكان أول من أكثر فيها من التضمين في المراكز، يضمّن كل مركز يقف عليه في المراكز خاصة، فاستمر لعل ذلك شعراء عصره كمكرم بن سعيد وابني أبي الحسن. ثم نشأ عبادة هذا فأحدث التصفير، وذلك أنه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان فيضمونها، كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز. وأوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض كتابنا هذا، إذ أكثرها على غير أعارض أشعار العرب»<sup>(٣١)</sup>.

ويؤيد ابن خلدون كلام ابن بسام بقوله:

«وأما أهل الأندلس، فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التنسيق في الغاية، استحدث المتأخرون منهم فنّاً منه سموه بالموشح، ينظمون أسماطاً

أسماطاً وأغصاناً أغصاناً، يكثر منها ومن أعاريضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً، ويلتزمون عند قواي في تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات، ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب، وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد. وتجاروا في ذلك إلى الغاية، واستظرفه الناس جملة: الخاصة والكافة؛ لسهولة تناوله وقرب طريقه. وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقام بن معافى القبري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد الرواني، وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد. ولم يظهر لها مع المتأخرين ذكر، وكسدت موشحاتها، فكان أول من برع في هذا الشأن ابن عبادة القرّاز، شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية<sup>(٣٦٥)</sup>.

ولم يبق لنا من نظم مقدم القبري شيء، ولكن يغلب على الظن أن موشحاته وأزجاله كانت من أبسط طراز، أي على ذلك الغرار الذي سبق بيانه. ولم نوفق - إلى الآن - إلى تعرف المصدر الذي استوحاه مقدم عندما ابتكر فن التوشيح، فيذهب البعض إلى أن أصل الموشح أندلسي محلي ويذهب البعض الآخر إلى أنه جليقي، ويذهب نفر ثالث إلى أن أصله البعيد روماني *romana*؛ بل قال بعضهم: إن الموشحات أتت الأندلس من بغداد، وأن أصلها يُلتمس في الرباعيات العربية الفارسية. وأخيراً حاول ميلياس فيليكروسا *Millas Villicrosa* أن يجد علاقة ما بين الموشحة والزجل من ناحية والنّ الشعرية العبرية المعروف باليزمون *Pizmon* والتسبيحات اللاتينية التي يرددها جمهور المصلين عقب كل فقرة من فقرات الترتيل الديني *responsorio latino*، وهي في الغالب آيات من الكتاب المقدس<sup>(٣٦٦)</sup>.

وقد حلت الموشحات محل القصائد الفصيحة كثيراً، وقد ذكرنا قول ابن خلدون أنهم كانوا: «ينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد»، وأنهم:

«تجاروا في ذلك إلى الغاية، واستظرفه الناس جملة: الخاصة والكافة؛ لسهولة تناوله وقرب طريقه».

وقد أشار منندذ بيدال إلى أن الطابع العربي الرومانسي للزجل دليل على امتزاج الثقافتين، وقال: «... والزجل عربي بلغته، وإن كانت هذه اللغة سوقية حوشية كثيرة الأخطاء، عربي بالتزامه قافية واحدة تراعى في أبيات الزجل الواحد كلها، وعربي كذلك بهذين الموضوعين اللذين يدور حولهما الكلام في كل مقطوعة: وهما الحب، أو وصف مغامرة عشقية وقعت للشاعر، والتمدح في شخصية يرجى نداها. ولكنه - على رغم ذلك - لا يبدو عربياً في نظمه على طريقة الفقرات (الأبيات، والبيت قفل وأغصان)، وهي طريقة غربية تغاير ما جرت عليه القصيدة العربية من الأبيات ذات البحر الواحد والقافية الواحدة؛ وكذلك لا يبدو عربياً في استعماله «الخرجة» في نهاية كل فقرة، وفي بعض الموضوعات التي يطرقها مثل الألبادا la albada - أي الفَجْرِيَّاتِ، وهي مقطعات شعرية عرفها اللانين باسم الباتا albata تقال في افتراق الأحبة عند طلوع الفجر، وهو موضوع سينتقل بعد ذلك إلى الشعر الأوروبي - وفي خلوه من الموضوعات التي تميز الشعر العربي من غيره، كوصف الرحلات في القفار المجهورة، وصفة حياة البداوة والتنقل والتحدث عن المواقع التي غادرتها القبيلة إلى غيرها، والكلام عن الجمال وما إلى ذلك.

ومن المحقق - أخيراً - أن الزجل إسباني، لأنه يتحدث عن أعياد ومواسم لا توجد إلا في التقويم اللاتيني، ولاستعماله ألفاظاً وعبارات من عجمية الأندلس مختلطة بلغته العربية الدارجة. هذا والأزجال - إلى جانب إهمالها للموضوعات الأدبية العربية - تبدو لنا حافلة بصورة الحياة اليومية لمسلمي الأندلس، وفيها ذكر كثير من عادات المستعربين وتقاليدهم،<sup>(٣٦٧)</sup>.

## ف ٥٠ - أوائل الزجالين

إذا ذكرنا الطابع الشعبي الدارج لهذا الفن الشعري، لم نستغرب من أصحاب مجموعة النظم والنثر - وهم متعصبون للفصحى وآدابها - أن يأنفوا من أن يوردوا في كتبهم نماذج منه. ولكن خُليان ريبيرا تمكن بفضل أبحاثه من العثور على ثروة حافلة من الأزجال وأصحابها.

فمن أوائل الذين نظموا الأزجال سعيد بن عبد ربه (توفي سنة ٢٤١هـ/٩٥٢م) ابن عم صاحب «العقد»<sup>(٣٧٨)</sup>، وكان معزياً بكتابات الإغريق وعلوم الأوائل والفلسفة، وكان صعب العشرة يتكلم لهجة دارجة خشنة؛ واجتهد في تجويد الأزجال أبو يوسف هارون الرمادي شاعر المنصور، وكان يسمى أبا جنيس (EI = Ceniciento وهي الأصل الدارج الإسباني الذي أخذ عنه لفظ الرمادي)<sup>(٣٧٩)</sup>، وكان يُرمى بالزندقة؛ لكثرة اتصاله بالنصارى (توفي سنة ٤١٢هـ/١٠٢٢م)، (ف ١٥)، وكان «أول من أكثر من التضمين في المراكز، يضمن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة، فاستمر على ذلك شعراء عصره» كما يقول ابن بسام وعبادة بن ماء السماء (توفي ٤١٥هـ/١٠٢٥م أو ٤١٨هـ/١٠٢٨م) الذي يقول عن ابن بسام: إنه أحدث التضمير، وذلك أنه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان فيضمنها، كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز»<sup>(٣٨٠)</sup>.

وكان أبو عثمان بن سعيد المعروف بالبليغة (أي الحوت = bellena) يصنع أزجالاً يقلد بها «الموالي»، وهو طراز من الشعر الشعبي عند المشاركة. ونظم ابن هانئ (انظر: ف ١٢) قصائد ذات قوافٍ مضفرة من طراز يختلف عن طراز الزجل والموشحة.

وأقبل على الموشحة شعراء كثيرون ممن أجادوا نظم الشعر الفصيح على طريقة القدماء، منهم أبو بكر بن اللبانة الداني الذي رثى الرشيد بن المعتمد

بموشحة ، وأبو بكر محمد بن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طليطة إذ كانت له موشحات ذاعت على ألسن أهل الأندلس، وأبو عبد الله محمد بن عبادة القزاز<sup>(٢٧١)</sup> الذي تغنى بمحامد بني صمادح أصحاب المرية في موشحات كثيرة<sup>(٢٧١)</sup>.

ومنهم كذلك الأعمى التطيلي - أبو جعفر بن هريرة المتوفى سنة ٥٢٤هـ/١١٤٠ م - وكان أديباً فذاً غلب أبا بكر بن بقی وأبا بكر الأبيض<sup>(٢٧١)</sup> ونقراً آخر من الوشاحين في مساجلة في التوشيح، وذلك عندما قال موشحته:

ضاحكٌ عن زمانٍ سافرٌ عن بدرٍ  
ضاقٌ عنه الزمانُ وحواصٌ صُدري

فخرق كل منهم موشحته<sup>(٢٧٢)</sup>. وأبو القاسم الحضرمي الذي كان يأخذ بيد التطيلي؛ حتى لقب «بعضا الأعمى»، وكان شاعراً وأديباً بارعاً؛ وابن بقی، وكان ماجناً مستهتراً وشاعراً من طبقة عالية، وكانت في شعره عنذوية أذاعت ذكره، وقد رمى المرابطين بالجهالة؛ لأنه عاش في عصرهم فقيراً<sup>(٢٧٤)</sup>.

وقد نظم أبو بكر بن زهر الطبيب أزجالاً وموشحات بلغت من الكمال مبلغاً جعل الناس يروونها كنماذج لهذين الفنين<sup>(٢٧٥)</sup>.

بيد أننا لا نجد بين أيدينا من هذه الأزجال والموشحات إلا أطرافاً قليلة وردت متناثرة في الكتب، فيما خلا «ديوان ابن قزمان» الذي وصلنا كاملاً على وجه التقريب، وهو لهذا يعطينا أكمل فكرة عما كان عليه فن الزجل.

(٢٧٥) هكذا ورد الاسم في «أزهار الرياض» للمقري (طبعة القاهرة، ج ٢، ص ٢٥٢).

ف ٥١ - ابن قزمان وديوانه<sup>(٣٣)</sup>

ينتسب أبو بكر محمد بن عبد الملك بن قزمان الأصغر إلى بيت بني قزمان، وكان من بيوت قرطبة العريقة. ولد في قرطبة بعد سنة ١٠٦٨/٤٦٠ وتوفي سنة ٥٥٤/١١٦٠، وينبغي ألا نخلط بينه وبين عمه وشبيهه في الاسم وزير المتوكل صاحب بطليوس، وكان شاعراً أيضاً، وقد توفي سنة ١١١٤/٥٠٧ كما بين الأستاذ ليفي بروفتسال، وقد مدح ابن رشد الحفيد في آخر حياته.

وقد قال ابن قزمان في مقدمة ديوانه: إنه وُجد في الأندلس ضريان من الزجل جنباً إلى جنب: أولهما : شعبي خالص جاف غليظ يستعمل الزجالون فيه اللغة الدارجة وعجمية أهل الأندلس el romance، وكان يوافق أذواق العوام؛ وثانيهما : مصقول مهذب erudita مصطنع متكلف يستعمل الناس فيه حركات الإعراب التي لا تجري بها السننهم في دارج الحديث. ولم يبقَ من النوع الأول شيء<sup>(٣٤)</sup>؛ لأن مصنفي كتب الأدب ازدروه وضربوا عنه صفحاً؛ وأما الثاني فلدينا منه أطراف، ولكنها تخلو من الجاذبية وسهولة الطبع التي يمتاز بها النوع الأول.

ويقول ريبيرا - ونحن نتابعه هنا فيما نقول عن الزجل - : إن ابن قزمان درس أزجال جميع من تقدموه، ثم شق لنفسه طريقاً جمع بين الفريقين اللذين ذكرناهما، وعرف كيف يحتفظ بأحسن خصائصهما، فرأى أنه من فساد الذوق والتكلف أن تستعمل حركات الإعراب في شعر يراد أن يُتقنى به جماعة في جمهور من الناس، ومن ثم فلا مفر من استعمال لغة الكلام الدارجة؛ حتى يقرب من أفهام الناس كافة.

وهو يريد «بلغة الكلام» اللهجة العامية الدارجة التي تشويها كلمات وعبارات من عجمية أهل الأندلس، على أن يكون ذلك في أسلوب متخير رشيق. وهو يرى أن الزجال ينبغي عليه أن يختار من الموضوعات أحفلها بالفكاهة وأخفها، وينبغي أن

يكون ما يختاره جذاباً رشيقياً فيأضاً بالحوية مما يثير اهتمام الجمهور، وينبغي ألا تكون الموضوعات معقدة أو بلاغية متكلفة، وإنما سهلة مما تجري به السنة عابر السبيل ومما يستعمله الناس في حلقات الموسيقى الشعبية الصاخبة ومجالات اللهو والتسلية، بل ينبغي أن تكون الموضوعات «حارة محرقة، حادة منضجة، من ألفاظ العامة ولغات الدأصة» كما يقول ابن سناء الملك<sup>(٢٧٨)</sup>.

أما قالب الأغاني وتركيبها فتستعمل له كل محور الشعر الفصيح القائم على أسس العروض، ولا بد أن تصاغ القطعة على نحو سلس غير متكلف؛ حتى تجيء سهلة طبيعية صادرة دون تعمل ولا جهد<sup>(٢٧٩)</sup>.

سار ابن قزمان في هذا الاتجاه الوسط الذي انتهجه قبل استأذه أخطل بن نمارة، «ولكن أزجال ابن قزمان حفلت بذكر الرذائل الملازمة لروح العوام، وخلت من أي تحفظ أو احتشام، ومن ثم فإننا نجد فيها فحشاً مخجلاً وألفاظاً مبتذلة مما كانت تجري به السنة أهل الأحياء المتطرفة من قرطبة»<sup>(٢٨٠)</sup>.

يضم ديوان ابن قزمان تسعة وأربعين ومائة زجل، كل زجل منها يتكون - عدا الخرجة - من أبيات متساوية في عدد الأغصان، وهو يلتزم هذا النظام في كل زجل.

«وكل من الأغصان يتكون من أربعة أشطار إلى اثني عشر شطراً، ففيها رباعيات وخماسيات وسداسيات وسباعيات وثمانيات وتساعيات وعشريات وآحاد عشريات». وأبسط أزجاله - وهي الرباعية - تبدأ بالقفل أو الخرجة، وهي شطر من بيت ذي قافية تلتزم في كل خرجات الزجل بعد ذلك، ونحن نرمز إليها هكذا: ا ا، ثم يلي ذلك ثلاثة أغصان على قافية واحدة نرمز لها بالحروف: ب ب ب، ثم تختم ببيت على قافية الخرجة الأولى «ا»<sup>(٢٨١)</sup>، (انظر ص ١٤٤).

وعلى رغم هذا القالب الفني المبتكر، الذي يبدو من الأزجال بوضوح أنه قائم

على أساس مقرر موضوع أو مصقول cortesano ، إلا أن الطابع الشعبي لها يدل على أنها إنما نظمت ليتغنى بها المنشدون في الأسواق ، أو المتسولون الجائلون في الطرقات ، أو أصحاب المجون أو «النسوان والسكري والسكران» ، كما يقول ابن سناء الملك. ولا تصاغ الأجزاء ليتغنى بها الإنسان منفرداً ، وإنما ينشدها الناس جماعة في الطرقات بصوت جهير وسط جمهور يتجمع أفراداه حول المنشد ، ثم ينشدون «الخرجة» جماعة عقب كل فقرة يلقيها المنشد وحده ، تصاحب ذلك كله آلات الموسيقى كالعود والناي والطنبور والدف والصاجات ، وربما تخللها الرقص».

ولم يكن من الممكن والحالة هذه أن تصاغ هذه الأغاني في قوالب الشعر الفصيح فحسب ، «والواقع أن لغتها ليست لغة الشعر المعروفة التي كان المؤدبون يلقنونها للدارسين ، بل الدارجة التي كانت جارية على الألسن في قرطبه ، بما فيها من دعابات سوقية وعبارات مبتذلة وألفاظ مواخير وعبارات الطلاب التي يستعملونها في مبادلتهم وألفاظ الصبيان إذ يلعبون في الطريق ، وفيها الكثير من العبارات الاصطلاحية التي يتعارف عليها أهل كل حرفة ، ولا تخلو كذلك من اللغو الفارع الذي تحفل به أحاديث البيوت»<sup>(٢٨٣)</sup>.

ومن هنا كثر استعمال العجمية الأندلسية في الأجزاء ، فنجد فيها ألفاظ مثل: يناير، مايو، بريينه verbana (نبات تغلى أوراقه وأزهاره وتُشرب)؛ بل نجد عبارات عجمية كاملة مثل: توتوين toto ben وكريو creo (اعتقد)، ومخشل دشول mejille de sol (خد كانه الشمس) بل هناك أشطار نصفها عربي ونصفها عجمي ، مثل الفقرة الثانية من الزجل رقم ١٠ من الديوان:

يا مُطْرَبْنَ شِلْبَاطُ كُنْ حَزِين تَنْ يَنَاطُ كُرَا السُّيُومِ وَشَطَاطُ

لم تذوق فيه غير لُقَيْمَةٍ\*

أما أوزان هذه الأغاني، فعلى الرغم من أنها مشتقة من تقاعيل العروض الشعري التقليدي، إلا أنها لا تلتزم قواعد النحو، إذ إن ألفاظها من الدارج الذي لا يعرف حركات الإعراب. بل إن اللفظ بقواي في الأجزاء لا يخضع لأشراط التقفية المعروف في الشعر الفصيح، هذا على الرغم من أن ابن قزمان كان يستعمل الحروف الجامدة consonants دائماً بطريقة أكمل مما نجده في الأشعار الأوروبية القديمة.

ويتحرى ابن قزمان أن تكون الخرجة مما يستلفت انتباه السامعين ويجتذب

(\*) مطر: madre: أم. بن: vani: تعالي. شلباط: salvado: أنجديني (5). تن: tun: tanto: حيناً، ومعنى تُنُّ .. تُنُّ على هذا يكون: حيناً .. وحيناً آخر. يناط: قرأها ريبيرا يناطو penato أي متألم، ويقترح الدكتور الإهواني أن تقرأ: يناط، وهي لفظة مغربية معناها الدقيق غير معروف، ولكن يفهم من مثل مغربي أورده الأستاذ محمد ابن شنب أن معناها الشدة، والمثل هو: جيت بين شناطي ويناطي، وترجمه ابن شنب هكذا:

Je susis tombé entre chenaty et ynaty: coupant lentment mal.

Cf: Mohammed ben Cheneb: Proverbes arabes de l' Algérie et de Maghreb (Paris, 1907),

nu. 2341 Sp. 133.

المعنى:

يا أمأه تعالي أنجديني

أنا حيناً حزين وحيناً متألم

ترى اليوم وطوله

لم تذوق فيه غير لقمة.

وهذه من قراءة كولان وبروفسنال، وهي أصح من قراءة ريبيرا التي تابعه فيها نيكل وأثبتها المولف مع الترجمة الشعرية الإسبانية الخاطئة التي قام بها ريبيرا.

Cf: Ribera, Dis. y, Op. I, p. 35.

أسماع الجمهور ؛ حتى يصغوا إلى الزجل، ومن أمثلة ذلك:

أياماً ملاح، شرطه الخلاعة حرام الذي يعمل صناعة<sup>(\*)</sup>  
وقوله في خرجة زجل آخر:

نعتي ثيابي ونفق مالي فالشراب البالي<sup>(\*)</sup>

ومن الأزجال ما يقصد منه إلى طلب المال والطعام أو الإحسان، ومنها السياسي، وأزجال المديح؛ بل منها ما يدور حول موضوعات حزينة.

ويسمي ابن قزمان الجزء الأول من كل زجل: «التغزل»، وهو مطلع الزجل الذي يحوي أول موضوعاته، «ولا بد أن يكون في أمر عام أو تقليدي، وينبغي أن يصاغ في قالب سهل خفيف فكاهي، ويفلب أن يكون موضوعاً جنسياً أو خمرياً أو سُخراً من المجتمع، لا هو بجارج ولا مثير، وإنما مبتذل لا تحفظ فيه».

(\*) خرجة الزجل رقم ٢٣ في الديوان، وقد قاله في مديحه رجل يسمى أبا جعفر ويلقبه بالوزير، ويشكو إليه من عجزه عن دفع كراء داره.  
أياماً: أيام، وإيراد الكلمات في حالة النصب على هذه الصورة كان أمراً عادياً في لهجة مسلمي الأندلس، الخلاعة: اللذة والسرور. صناعة: عمل.  
ومعنى الخرجة:

ما أملح هذه الأيام .. إن شرط اكتمال اللذة والسرور هو التبطل، وحرام معها أن يعمل الإنسان عملاً ما.

Cf: A. R. Nykl: El Cancionero de Aben Cuzman. pp. 58-60, 373-374.

(\*) خرجة الزجل رقم ٢ في الديوان، وهو مرقوم خطأ تحت رقم ٢٥. وقد قاله في مديح وزير لم يذكر اسمه، يقلب علي الظن أنه ابن حمدين.

Cf: A. R. Nykl, op. cit. pp. 372-373.

فالشراب: في الشراب، البالي: المعق.

ثم إننا نجد ابن قزمان يعالج الموضوعات الغرامية بطريق لا نكاد نجد فيها أي طابع عربي صرف؛ فلا ذكر للجمل ولا للتجوال في القفار، ولا أثر للحياة البدوية الطاعنة؛ ولا نجده يذكر الديار التي هجرها أهلها<sup>(٢٨٢)</sup>، أو يشير إلى موضوع من موضوعات تاريخ العرب.

بل إننا لا نجده يذكر الإسلام إلا في مواضع قليلة، ويكون ذلك عادة عند ذكره للفقهاء والأتقياء، وهو ينال منهم في غير حياء ويركبهم بألوان السخرية؛ فإذا ذكر شهر رمضان والصيام سخر من الصائمين وأطرى المفطرين والمقبلين على الخمر واللواط. وهو لا يذكر الدين إلا في ثلاثة مواضع أو أربعة في بعض أجزال المديح من ديوانه، ويلحظ القارئ بوضوح أن ذلك التوقير للدين صدر عن ابن قزمان وهو في معرض السخط على نصارى الشمال.

أما القسم الثاني من الزجل وهو المسمى «المديح» فيتغنى فيه ابن قزمان بفضائل من يهدي إليه الزجل، ثم يختم بطلب معروف أو رقد. وفي ديوان ابن قزمان زجل نقله الأستاذ ريبيرا إلى الإسبانية كاملاً، نجد فيه موضوع الشعر المسمى في الشعر الأوروبي بالألبادا أو المقطعات الفجرية، وقد سبق به ابن قزمان أقدم ما في أيدينا من الشعر البروفتسي من هذا النوع بخمسين سنة، ونحن نجد فيه ذكر الرقيب ولقاء الحبيبين في ظلام الليل وخوفهما من طلوع الفجر وصراع الهوى في قلبيهما قبل الفراق؛ ولا بد أن هذا الموضوع كان قد قدم به العهد واطمحل في الأندلس؛ لأن ابن قزمان يسخر منه<sup>(٢٨٤)</sup>.

لولم يورد المؤلف نص هذا الزجل الذي يشير إليه، وهو الزجل رقم ١٤١ من الديوان، وقد رأيت أن آتى بيتين منه هنا؛ قال ابن قزمان:

تَشْرِبُ المَلِيحَ وتَسْقِينِي لا رَقِيبَ عَلَيْنَا ولا حَاكِمَ كَذَا أَمَلِحُ<sup>(\*)</sup>

بِتَنَا فِي رِضَى، قَبْلَ وَعَنْقُ

أَي تَمُورٍ، أَوْشُ تَرِيدُ تَقْلُقُ

وَقَرَّ الغَرَامَةَ لِمَنْ يَعشِقُ

مَنْ صَبِرَ لِمَشِدَّتِي رَالِيَنِي

قَلُّ مَا عَلَيْهِ أَنَا عَازِمٌ

فَلَا يَفْلِحُ<sup>(\*)</sup>

الصُّبَا يُشَاكِلُ مَا يَفْعَلُ

دَاعُ دَاعُ يَجِي وَيَذُ ل

قَدْ تَرَايْتُ وَلَمْ تُرَا قَطُّ أَجْمَلُ

(\*) المليح: مليحة. وهذه الأشرطة الثلاثة هي خرجة ذلك الزجل، وقد جعلتها في سطر واحد كما

وردت في الديوان؛ أما بقية الزجل فقد جعلت كل سطر في سطر.

(\*) عنق: عناق. أي تمور: أين تمر: أين تذهب. أو لماذا. تريد تقلق: تقلق. وقر الغرامة: دع

فرصة الغرام، ويقترح الإهواني قراءتها: وقر الغرامة، أي ثقل العبء على العاشق. رالييني:

رأي ليني ورقتي. قل ما عليه أن عازم: ما أقل ما أستطيع حزم رأيي عليه. فلا يفلح: ولا يفلح

مع ذلك.

المعنى:

لقد بتنا في رضا، ما بين اعتناق وتمييل

أين تريد أن تذهب؟ .. أو ماذا يفلحك؟ ..

دع تكاليف الغرام لعاشقك.

إن من يصبر لعنقي يتبين بعد ذلك كم أنا رقيق

وما أقل ما أستطيع أن أحزم أمري على شيء ..

ولهذا لا يفلح لي شيء ..

مَنْ صَدْرُ لَطْمٍ يَشْتَهِينِي  
يَنْبَهْرُ عَلَيْهِ نَهْدًا قَائِمًا  
وَيَتَوَقَّعُ<sup>(٢٨٥X\*)</sup>

ف ٥٢ - مدرسة ابن قزمان

إن مجرد ذكر معاصريه ومن أتوا بعده ممن انصرف إلى نظم الأزجال أمر يطول، ونكتفي هنا بذكر أبي عبد الله بن الحاج المعروف بمدغليسي<sup>(٢٨٦)</sup>، الذي كان يعني بالأسلوب أكثر مما كان يعني به ابن قزمان، وأبو المتوكل، والهيثم بن أحمد بن أبي غالب الإشبيلي الذي كان «يملي على أحد الطلبة شعراً، وعلى ثانياً موشحة، وعلى ثالثاً زجلاً، كل ذلك ارتجالاً»<sup>(٢٨٧)</sup>، وأمُّ الكرام بنت المعتصم بن صُمّادح صاحب المرية، وكانت تبعث إلى محبوبها الأصمعي ببطائق منظومة أزجالاً<sup>(٢٨٨)</sup>، وإبراهيم بن سهل اليهودي، وابن المرعزي النصراني، والزاهد المتصوف أحمد بن وكيل،

(\*) الصبا يشاكل ما يعمل: ما يعملُه يتفق مع صباه. داع داع: دعه دعه. يدل: يتدل. قد ترايت: قد ظهرت. مَنْ صَدْرُ: تكلمة للطنطرة السابقة: لم تر قط أجمل من صدر يشهيني لضمه. ويتوقع: يتجراً، يضطر إلى الجراءة.  
المعنى:  
إن ما يعملُه (محبوبي) يتفق مع صباه ..  
قدعه دعه يمضي ويتدل ..  
ها أنت قد ظهرت، ولم تر قط أجمل منك ..  
لشدة ما أشتي لضمه لصدره ..  
إنَّ عليه نهْدًا قائمًا ينهْر منه الإنسان ..  
ويتوقَّع ..

Cf: Ribers, op. cit. I. pp. 86-92.

Nyki, op. cit. pp. 315-316, 436-438.

وأبو الحسن الششتري الوادي آشي، ومحبي الدين بن عربي المرسي، والفيلسوف الشاعر الموسيقي أبو الصلت بن أمية الداني، وابن زهر الطبيب، وابن باجة، ونزهون بنت القلاعي الفرناطية.

قال صاحب «المغرب» في حقها: «من أهل المائة الخامسة، ذكرها الحجاري في المسهب ووصفها بخفة الروح والانطباع الزائد والحلاوة، وجفظ الشعر والمعرفة بضرب الأمثال، مع جمال فائق وحسن رائق، وكان الوزير أبو بكر بن سعيد أولع الناس بمحاضرتها ومذاكرتها ومراسلتها»، وكانت تلميذة لأبي بكر المخزومي الشاعر الضرير، وكان صاحب سخر لاذع وصديقاً لابن قزمان.

وقد انصرف الناس إلى صناعة الزجل في كافة نواحي الأندلس، ففي أرجون (سرقسطة) ظهر أبو بكر أحمد بن مالك بن سيد اللخمي الشابي<sup>(٢٨١)</sup>، وفي بلنسية ابن حريق<sup>(٢٩٠)</sup> و ابن محمد الشاطبي<sup>(٢٩١)</sup> تابع ابن مردانيش، وفي مرسية أبو عبد الله محمد بن ناجية اللورقي<sup>(٢٩٢)</sup>، وفي قرطبه محمد بن خيرة<sup>(٢٩٣)</sup> كاتب المرابطين. وكثر الزجالون في إشبيلية خاصة؛ حيث ظهر شعراء برعوا في نظم الزجل البديع المبتكر، من أمثال أبي الحسن علي بن جُحْدُر<sup>(٢٩٤)</sup>، وأبي بكر الصابوني<sup>(٢٩٥)</sup>، وأحمد بن جُتُون<sup>(٢٩٦)</sup>، وابن أبي حبيب الجزري<sup>(٢٩٧)</sup> الذي صلبه الموحدون لزندقته، وأبي بكر بن صارم<sup>(٢٩٨)</sup> الذي رُمي بالزندقة هو أيضاً وأوذي ثم مات محترقاً في حريق شب في بيته، وأحمد المقرئ المعروف بالكسَّاد<sup>(٢٩٩)</sup>، وعبد الغفار بن دشلون<sup>(٣٠٠)</sup>، وغيرهم كثيرون يصدق فيهم قول الشقندي: «وأما ما فيها (أي في الأندلس) من الشعراء والوشَّاحين والزجالين فما لو قسموا على بر العداوة ضاق بهم، والكل ينالون من خير رؤسائهم ورفدهم»<sup>(٣٠١)</sup>.

وحتى في مملكة غرناطة أغرم الناس بهذا الفن الشعري، وأقبل عليه من أهل العلم والمعرفة نضر مثل النحوي أبي حيَّان بن حيَّان، وابن عبد العظيم الوادي آشي،

وابن زَمْرَك الذي اشتهر «بصبحياته»<sup>(٣٠٧)</sup>، وذي الوزارتين ابن الخطيب الشاعر النائر المعروف، بل إن ابن خلدون يذكر أنه عندما زار غرناطة وجد «الزجل» الفن الشعري السائد هناك<sup>(٣٠٨)</sup>. وكان الموريسكيون ينظمونه أيضاً.

وفي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين توجه من أهل الأندلس نفرٌ من الفقهاء والمتصوفين والأطباء وأهل الأدب إلى المشرق، وكان لهم أثر عظيم هناك. وعن طريق بعض هؤلاء انتقل الزجل إلى المشرق، وكان أول من علّم أهله صناعته أبو مروان بن زهر، الذي مارس الطب في بغداد، وأبو علي الشلوبيتي النحوي، وابن وكيل الزاهد الذي عرف بابن الأقلشي، ومحيي الدين بن عربي، وعبد المنعم بن عرم - وكان كحّالاً وفيلسوفاً وأصله من جيان، وأصبح فيما بعد شاعر صلاح الدين الأيوبي - وابن سعيد الغرناطي، الذي اجتمع في المشرق بشعراء أندلسيين هاجروا من بلادهم وانصرفوا إلى صناعة الزجل في مهاجرهم، ومن أولئك أبو الحجاج يوسف بن عقبة<sup>(٣٠٩)</sup>.

وسنرى فيما بعد (ف ١٦٦) أثر الزجل في الأشعار الأوربية.